المبحث الرابع

من شعر النابغة الذبيانى

النابغة الذبيانى

ديوان النابغة له طابع يُميِّزه عن دواوين غيره، ومن أصول هذا التميّز أن شعر النابغة يدور أكثره حول ثلاث قضايا كانت من أهم شواغل النابغة ومن أهم مثيرات شعره.

الأمر الأول اتهامه بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر، وكان النابغة منقطعًا للنعمان ومن قبله كان منقطعًا لأبيه، ومن قبل أبيه كان منقطعًا لجده، والنابغة قال الشعر بعد ما احتنك كما نعلم ومعنى هذا أنه اتهم بالمتجردة، وقد علت به السنّ وكان لهذا أثرٌ بالغ فى نفس النابغة. وقد اقتنع النعمان أخيرًا ببراءته ولكن بعد زمن طويل أكثر فيه النابغة من الشعر فى هذا الباب، والذى يراجع شعره فى هذا الباب لا يراه اعتذارًا كما هو الوصف المشهور لشعر النابغة، وإنما كان رفضا لهذه التهمة وتبرئة لساحته وسنبين ذلك من الشعر نفسه. والمتجردة امرأة من كلب وهذا لقبها واسمها ماوية أو هند بنت المنذر بن الأسود وكانت زوجا لابن عمِّها واسمه جَلَم قالوا وتحيَّل عليه النعمان حتى طلقها وتزوجها النعمان، وقالوا إن الذى تحيَّل على جَلَم هو أبو النعمان، وتزوجها ولما مات خلفه ابنُه عليها. وكان ذلك مألوفًا حتى منعه الإسلام، وكانت محنة النابغة فى المتجردة من أهم ما أخرج لنا أفضل قصائد النابغة. وقد وصفها النابغة فى قصيدة هى من حر شعره، وقالوا إن النعمان هو الذى طلب منه أن يصفها.

ومطلع هذه القصيدة يخالف مطالع قصائد النابغة بل وأكثر مطالع الشعر، لأن الذى ارتحل فى أول القصيدة ليستْ هى الصاحبة كما هو المألوف وإنما الشاعر قال:

أزف الترحُّلُ غير أنَّ ركابَنا ... لَمَّا تَزُلْ برحالنا وكأن قَدِ

زعم الغداف بأنَّ رِحْلتنا غداً وبذاك خَبَّرنا الغُرابُ الأسْوَدُ
لا مرحبًا بغَدٍ ولا أهْلاً بهِ إن كان تَفْريقُ الأحِبَّةِ فى غد

والبيت الثانى فيه إقواء وكان النابغة يقوى، وهذا مطلع يماشى الواقع أكثر مما يماشى التقاليد الشعرية لأن الذى سيرحل هو النابغة، وأزف الترحل معناه قرب ويروى أفِدَ ومعناها قرب «وكأن قَدْ» معناه وكأن قد زالت، وهى كلمة جيدة جداً لأنها تصور سرعة مُضِى ما بقى من الزمن، وكأنه ما إن قال «لما تزل»، حتى زالت وفيها أبيات من أرفع الشعر وأسراه من مثل قوله:

صفراءُ كالسِّيراء أُكْمِلَ خَلْقها كالغُصن فى غُلُوائِه المتأوِّدِ

وإنما يريد بذلك صفرة الطيب وراجع قوله «أكمل خلقها» وقوله «فى غُلوائه المتأوّد» والغلواء، معناه الامتداد والمتأوّد المتثنى. ومنها:

قامت تراءى بين سَجْفَىْ كِلَّة كالشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعها بالأسْعُدِ
أو دُرَّةٍ صَدَفِيَّةٍ غوّاصُها بَهِجٌ متى يَرَها يُهِلُّ ويَسْجُدِ
أو دُمْيةٍ من مَرْمَرٍ مَرفُوعَةٍ بنيت بِآجُرٍّ يشاد بقَرْمَدِ
سقط النصَيفُ ولم تُردْ إسقاطَهُ فتناولَتْه واتَّقَتْنا باليدِ
بمخضَّبٍ رَخْصٍ كأن بَنَانَه عَنَم يكادُ من اللَّطَافة يَعْقِدِ

وسجفى الكلة: السترُ الرقيقُ. والكِلَّة الساتر، والأسْعد اليوم الذى لا غيم فيه، والعنم زهر أحْمر مستطيل مثل الأصابع وهذه أبيات سائرة.

ومنها وهو سائر أيضًا:

لو أنها عَرَضَتْ لأشمط راهب يخشى الإله صَرُورةٍ مُتَعبِّدِ
لَرَنَا لرُؤْيِتها وحُسْنِ حَدِيثَها ولخاله رشدا وإن لم يرشدِ
يتكلم لو تستطيع كلامه لدنت له أروى الهضاب الصُّخَّدِ

والأروى أنثى الوعول وهو فاعل يتنازَعُه فِعْلُ «تستطيع» وفعل «دَنت» والمعنى لو تستطيع أروى الهضاب كلامه لدنت له، والصُّخد الحجارة الملساء، والوعول تعيش فى أعلى الجبال والصَّرورة المُتَعَبِّدُ هو الراهب المقطوع عن النساء وفى القصيدة بيت أظنه زرع فيها وهو:

والبَطْن ذُو عُكَنٍ لطيفٌ طيُّه ... والنَّحرُ تَنْفَجُه بثَدْيٍ مُقْعَدِ

والعكن جمع عكنة وهو ما انطوى من لحم البطن من السمن، وتنفجه ترفعُه عن بقية الصدر لنهود الثدى، وإنما قلت إن الظن أنه زرع فيها وليس منها لأن النابغة كان شديد الحذر وشديد الاحتياط وهو معروف بالحكمة وقد فطن إلى حذره واحتياطه فى هذه القصيدة أبو العلاء وذكر ذلك فى تعقيبه على قوله فى وصف ثغرها وعذوبة رضابها:

كالأقْحوان غداة غبِّ سمائه ... جفّت أعَاليه وأسفَلُه نَدِى

زَعَمَ الهُمام بأن فاها باردُ ... عَذْب مُقبّله شَهِيٌّ المورد

زعم الهُمامُ ولم أذقْه إنه ... عَذْب إذا ما ذُقْتَهُ قُلتَ ازْدَدِ

والذى يحتاط هذا الاحتياط مع أن عذوبة الريق مما يجرى فى الشعر كثيراً على سبيل التخيل لا يصف عكن بطنها ولا يحدث عن لطف طيّه، هذا وأقطع بأن الأبيات التى بعد قوله «وكأنها حين اسبكرت مُزْنة وسط الغمام» مصنوعة ومُسْنَدَة للنابغة لتأكيد الوقيعة التى أوقعه فيها بنو قريع، لأن الذى يحتاط فى الحديث عن عذوبة الريق لا يمكن أن يحدّث بهذه الأبيات التى لم أقرأ لها نظيرا فى الفحش، وكشف السوأة، والخروج عن كل قيم الآداب، ومعانى الشعر، وأخلاق الناس، لم أقرأ لها نظيرا فى الشعر العربى كله، والشعراء الذين عرفوا بالمبالغات فى حديث لهو النساء من أمثال امرئ القيس والأعشى وعمر بن أبى ربيعة، والفرزدق، وغيرهم لم يصلوا إلى هذا المستوى من الكلام المفضوح، والذى ليس فيه من الشعر شيء، وإنما هو بذاءة محضة موزونة مقفاة، وعجبت من أننى أجدها

فى طبعات ديوانه، مع أن النابغة ليس فى شعره ما يخدشُ الحياء، وليس فى شعره كلمة يُخْجِلُك أن تقرأها على أحرار النساء وغير أحرارهن.

والمهم أن محنة المتجردة كما قلت أهاجت حُرّ شعر النابغة من أمثال الدالية التى أولها «يا دَارَ ميّةَ بالعليا فالسند»، وهى من أكـرم معادن الشعر، وقد وقفت عندها كثيرًا وكلما كررت النظر فيهـا وجدت دفائن هى من حرّ الشعر وحر إشاراته وهى من أسخى وأعلى مختارات شعرنا القديم، ومن الذى أهاجته المحنة قصيدته البائية أتانى أَبَيْتَ اللَّعْنَ أنك لُمتِنى وتْلك التى أهْمَ منها وأنْصَبُ.

والعينية التى أولهـا «عفا ذُو حَسًى من فَرْتَنَى والقوارع» وسـأعرض لها إن شاء الله ويدخل فى الشعر الذى أنتجته محنة النابغـة بالمتجردة قصيدته الفذة النبيلة التى مدح بها الغساسنة لأنه ذهب إليهم هاربًا من وعيد النعمان والتى مطلعها:

كِلينى لهـم يا أمـيْـمَـةَ نـاصب   ولَيْلٍ أقـاسِـيـه بطىءِ الـكواكبِ

وهذا من أكرم مطالع الشعر، وقد وصف فـيها الليل وصفا زاحم وصف امرئ القيس فى قوله المشهور (ولَيْلٍ كَمُوجِ البَحْر) وفى القصيدة أبيات سائرة ولـم أعرف أنه وَصَفَ بأسَ قَوْم فى شعـره كما وصف فى هذه القصيـدة بأس الغساسنة، لأن قوة الغساسنة هى التى طلب حمايتها، وأبياته فى ذكر الطير المصاحب لجيش الغزو والتى يقول فيها:

إذا مـا غَـزَوْا بالجيش حلَّق فـوقـهم   عـصائبُ طَيْـرٍ تَهْتَـدِى بعـصـائب

يُصَـانِعنَهُمْ حـتـى يُغْـرْنَ مُـغـارهم   من الضَّـاريـاتِ بـالدِّمَـاءِ الدَّوَارِبِ

تراهُنَّ خَلْفَ القـوم خُـزْرًا عُـيـونهُـا   جُلُوس الشـيـوج فـى ثيـاب المرانـب

جـوانحُ قَـدْ أيقـنَّ أنّ قـبـيـلهَ   إذا مـا الْتَـقَى الجـمـعـانِ أوّلُ غـالـب

ويصانعنـهم يعنى يتابعنهم، والضـاريات من الضراوة ويراد الشـاربات من دماء القتلى، والدوارب المُتَعَوِّدات من الدُّربة.

وقد تجلت قدرة أبى أمامة على تجويد الشعر وتثقيفه ولم أعرف أحدًا فتح هذا المعنى بهذا الاتساع قبل النابغة وهذه الصورة من أولياته لا شك.

ومن الأبيات السائرة فى هذه القصيدة قوله:

وَلاَ عَيْبَ فيهم غَيْرَ أن سُيُوفَهُمْ ... بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ

تَوُرِّثْنَ من أزمانِ يَوْمِ حَليمةٍ ... إلى اليَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ التجارِبِ

وهذا من الشعر الذى يزيد على تكراره استنارة.

والخلاصة أنك كلما قلبت صفحات ديوان النابغة وجدت شبح ماوية أو هند بنت المنذر بن الأسود الكلبى امرأة جلم الكلبى، التى لُقِّبَتْ بالْمُتجِّردة وصارت امرأة النعمان بن المنذر، وكانت أيضًا بلاء على المنخَّل اليشكرى الذى قالوا إنه كان يهواها، ولما سمع قصيدة النابغة فيها دَبَّت الغَيْرَة فى نفسه فوشى بالنابغة وقال للنعمان لا يقول هذا إلا من جرب؛ فكان من أمر النابغة ما كان، ثم إن النعمان أوقع بالمنخَّل ولم يعرف أين ذهب، وصار العرب يضربون المثل بعودته ويجعلون ذلك مثالاً للمستحيل ويقولون «حتى يؤوب المنخَّل» كما يقولون «حتى يعود القارظان ويُنْشَرَ فى الموتى كليبُ بن وائل.» الأمر الثانى وهو أقل من هذا أثرًا فى إنتاج شعر النابغة هو هموم ذبيان فقد كان النابغة من أبرز رجال قومه، ولم يكن كغيره من كثير من الشعراء الذين يعيشون بعيدًا عن صناعة الأحداث وإنما يلامسونها بعد ما تكون ويتحدثون عنها فى شعرهم كما نرى ذلك فى كثير من ديوان زهير، وإنما كان النابغة من صنّاع الحدث، ولهذا كانت هموم بنى ذبيان هى همومه وذبيان من أكبر قبائل قيس عيلان، وتزاحمها فى ذلك أختها عبس، وكان يكون فى ذبيان رجال مغرورُونُ ويقودهم الغرور إلى حروب كانت تكون أحيانًا أكبر من طاقاتهم، ومن أبرز ذلك أن النعمان بن الحارث الغسانى أحمى واديا اسمه ذو أُقر، وهو واد متسع، فاحتماه الناس، وتربَّعه بنو ذبيان، ونهاهم النابغة عن ذلك فلم يَنْتَهُوا وعيَّرُوه من خوف النعمان، فأغار عليهم عمرو بن الجُلاح

الكلبى، وكسرهم فى ديارهم، وسبى نساءهم، ومن بينهن عقرب بنت النابغة فلما عرفها عمرو أعادها وأعاد معها كل نساء ذبيان وحمَّلهم وحباهم، وقد فعل هذا الموقف فى نفس النابغة ما فعل وهو الرجل الكريم الحكيم فذكر فى ذلك شعراً جليلاً جداً، أبرزه قصيدته الرائية العظيمة:

عوجوا فحَيُّوا لنُعْمٍ دمْنَةَ الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وهى عين من عيون شعرنا العريق وقد قرأتها مرات، ولم أشبع من قراءتها وصورها، وجَوْدتها، وإشاراتها، وتَلْميحاتها، وحديثه فيها عن نعم حديث كله حب ودفء، ومودّة، وإكرام وعطف لأن نعم هذه هى ومن معها من النواعم هن نساء ذبيان، وهن مع عقرب وهن مثل بيضات بمحنيةٍ يَحْفِزْنَ مِنْه ظليما فى نقا هارٍ، وراجع النواعم اللاتى صرن بيضات فى محنية يذكرهن الظليم فيستعجل فى العودة إليهن، وضع هذا بإزاء سبايا يحفزن أقوامهن لاستخلاصهن، وتأمل وجه دلالة الشعر على معناه ومنها:

إن الحُمُول التى راحَت مُهَجِّرةً يتبعن كلَّ سفيه الرأىِ مِغْيار

وضع هذا بإزاء نهيه بنى ذبيان وأنهم لم يَنْتَهُوا وأنهم تبعوا سفيه الرأى وتربعوا فى الأرض التى حماها الملك. وراجع قوله الذى قلما تجد له نظيراً فيما قاله الناس:

أقولُ والنجمُ قد مالَتْ أوَاخِرهُ إلى المغيب تَثَبَّتْ نَظْرةً حَارِ
ألمحةً من سنا برق رأى بصرى أم وجهُ نُعْمٍ بدَا لِى أم سنَا نار
بل وجه نُعْم بدا والليلُ مُعْتكرٌ فلاحَ من بين أثواب وأسْتار

وراجع قراءة هذا وراجع تأمله واذكر أن بنت النابغة فى الأسر وأنه يتطلع إلى وجهها، والليلُ معتكر، وليس أشد سواداً من ليل قوم اجتاحهم عدوهم، وسبَى نساءهم، ثم بدا له وجه نعم من بين أثواب وأستار، كان النابغة من أفرس الناس

فى إضمار إشاراته ودلالته وَوَحيْه ورموزه، وقد ختم هذه القصيدة بقوله السائر فى الناس:

وعــيّـرتنى بنو ذبيــان خـشـيـتــهُ ... وهل علـىّ بأن أخــشــاك من عــار

وتأمل هذا الاستـفهام وهذا الالتـفات وكان الأصْـمَعِى يكثر التـعجب من هذا البيت.

وقد ذكر فى هذا المقام قصائد أخرى جيادا من أمثال قوله:

أهاجك من سـعـداك مَـغْنَى المعـاهد ... بِرَوْضَــة نُـعْـمىٍّ فـذات الأسـاود

وقصيدته

أصَـاحِ تَرى بَرْقًـا أُرِيكَ ومَـيـضَـةُ ... يُضىءُ سناه عـن ركـام منضَّــد

وسـأعود إلـى هذا الباب مـن أبواب شعـر النابغـة لبـيـان شىء مما رأيناه فى مراجعته.

ويدخل فى هموم ذبيـان التى أهاجت بعض شعر النابغـة أن من بنى ذبيان من كان يحسدون النابغة بفضله ومكانته عند الملوك ولثرائه أيضا وكان من ذلك أن يزيد بن سنان المرى وكنيته أبو ضمرة أخا هرم بن سنان الذى مدحه زهير كان قد لاَحَى النابغة كما قال ابن سلام ونماه إلى قضاعة وأنكر نسبه فى ذبيان، وهو الذى قال له النابغة:

جــمِّع مــحَـاشك يا يـزيدُ فــإنَّنِى ... أعْـدَدْتُ يـربوعًــا لـكم وتميــمًــا

ولحــقتُ بـالنسب الذى عــيّــرْتَنِى ... ووجــدتُ أصْلَكَ يا يَزيدُ ذمــيـمًــا

وحَــدِبَـتْ على بطـونُ ضِنَّة كلُّـهــا ... إن ظالمـا فـــيــهـم وإن مظلـومــا

وضنة بن كبير بن عذرة وعذرة. من قضاعة ومحاشك اسم القوم يجتمعون من قبـائل شتىً وهو بكسر الميم. وحَـدِبَتْ علىّ عطفت وهو بكسر العين كـفرحْ وإن

ظالما يعنى إن كنت ظالما أو مظلوما فهم معى ينصروننى وهذا معناه أن يزيد بن سنان المرى همّ بحربه.

قال الأستاذ محمود شاكر معلقا على الخبر (أبو ضمرة هو أخو هرم بن سنان الذى مدحه زهير بن أبى سُلمى ويأتى ذكره فى بعض الكتب بلقبه «ذو الرَّقيبة المرى» أو «الأشعر المرى» أو بنبذه (المقشعر) لأنه كان إذا حضر حربًا اقشعر؛ ولاحى فلانا نابزه وسابّه، ونماه وعزاه إلى كذا واحد. وأبو ضمرة من بنى نُشبة بن غيظ بن مرة ابن عوف بن سعد بن ذبيان والنابغة من بنى يَرْبوع بن غيظ بن مرة ابن عوف، وكانت أخت النابغة تحت أبى ضمرة فطلقها وهاج الشر بينه وبين النابغة، فكان يقول له والله ما أنْت من قيس عيلان وما أنت إلامن قضاعة، وكانو يزعمون أن رهط النابغة بن يوبوع بن غيظ بن مرة إنماهم بنو يربوع بن تميم بن ضِنة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد بن هذيم من قضاعة، وذكر ابن السكيت فى ديوان النابغة أن يزيدا قال للنابغة:

الحق بسَحْمةَ إن أصْلك فيهمُ ... حَقٌّ بن سحمة أن يكون لئيمًا

وسحمة هى بنت كعب بن عمرو بن قضاعة. فرد عليه النابغة بالأبيات التى مضت والتى فيها:

ولَحِقْتُ بالنَّسَبِ الذى عيَّرتنى ... وتركت أصْلكَ يا يزيدُ ذميما

وقد استثارت هذه المحنة النابغة واستخرجت لنا منه قصيدة فريدة فى الشعر العربى كله وقد أقامها على وجه من التخيّل على غير مثال فى هذا الشعر، وهى الرائية التى ذكر فيها ذات الصفا، وفيها حَسْرة بالغة، وغضب شديد ولوعة حارقة من بنى ذبيان الذين لم يعرفوا له حقه ولم يَزْجُروا عنه ظلامة سفيه بنى مرة. ومفتتح القصيدة فيه غضب شديد بدأها بقوله:

ألا أبلغا ذبيان عَنّى رسالة ... فقد أصْبَحت عن مَنْهج الحق جائره

أجِدَّكُم لن تَزجَرُوا عن ظُلامة ... سفيها ولن ترعوا لودّى آصِره

ومعنى أجدكم، أبجد ما أنتم فيه، وكأنه لم يصدق أن يخذله بنو ذبيان ولم يزجروا الذى ظلمه، والقصيدة كما قلت متميزة فى الأدب العربى كله، لأنه لم يجد مثالاً له ولهم إلا قصة الحيَّة التى حَمَتْ واديًا فلا ينزل فيه أحد، وكان أخوان قد خربت بلادهما، فقال أحدهما أنزل بإبلى فى هذا الوادى فنهاه أخوه فلم يَنْته، ونزل بإبله فلدغته الحية فمات فطلب أخوه الحيَّة ليقتلها فلما لقى الحيَّة أخبرته بأنها نَدمت على قتل أخيه وطلبت منه الصلح، وأن يرعى فى واديها وتعطيه دية أخيه فقبل فصالحها على ذلك، وحلف لها وعاهدها. فلما كثر ماله أراد أن يغدر بها فَعَمد إلى فأسٍ فأحدَّها فمرتْ به فضربها فأخطأها، وأصاب رأس ذنبها فقطعه، فقطعت عنه الدينار التى كانت تعطيه فأتى جحرها وحياها فخرجت له فضربها فأخطأها فقالت له ليس بينى وبينك إلا العداوة فاحذر منى فإنى سأقتلك فطلب منها العودة إلى الصلح فقالت له كيف أعاودك وهذا أثر فأسك، وهذا هو قول النابغة:

وإنى لألْقى من ذَوى الضِّغْن مِنْهُم ... وما أصْبَحَت تَشْكُو من الوَجد ساهره
كما لَقِيَت ذات الصَّفا من حليفها ... ومَا انفكت الأمثالُ فى الناس سائره
فقالت له أدعوك للعقل وافيًا ... ولا تَغْشيَنِّى منك بالظلم بادرة
فواثقها بالله حتى تراضيا ... فكانت تَدِيه المالَ غبا وظْاهره
فلما توفَّى العَقْلَ إلا أقلَّه ... وَجَارَتْ به نفسٌ عن الخَيْر جائره
تذكّر أنّى يجعل الله جُنَّةً ... فيصبحُ ذا مال ويَقْتلُ واتره
فلما رَأى أنْ ثمرّ اللهُ مالَه ... وأثل موجودا وسدَّ مفاقره
أكبَّ على فأس يُحدُّ غُرابها ... مذكَّرَة من المعاول باتره
فقام لها من فوق جُحْرٍ مشيَّدٍ ... ليقتلها أو تُخْطئُ الكفُّ بادرَه
فلما وقاها الله ضربة فأسِه ... وللبِرِّ عين لا تُغَمّضُ ناظره
تندَّم لما فَاته الذَّحْلُ عندها ... وكانت له إذ خَاس بالعَهْدِ قاهره

فـــقـــال تعـــالى نجـــعل الله بَيْنـنا على مـــالنا أوْ تُنجـــزى لى آخـــره

فـــقـــالت يمـــينُ الله أفْـعـلُ إنّنى رأيتك مـســحـوراً يمينـك فـاجـره

أبى لى قـــبـــرٌ لا يـزال مُـــقَـــابِلِي وضـربةُ فـأسٍ فَـوْقَ رأْسِيَ فـاقـره

وسمـيت الحية ذات الصـفا لأنها تسكن الصـفا وهى الحجـارة، والعَقْلُ الدية، وتديه المال أى تعطيه دية أخيه، ومـعنى «تذكر أن يجعل الله جنة» رفض أن يكون عهـد الله حائلاً بيـنه وبين الغنى، وعزم على الغـدر، وثمَّر الله مـاله زاده، وأثَّلة يعنى ثبَّتـه وسد مفاقره أى سَـدَّ فَقْرُه، والفأس المذكَّرة المصنوعـة من حديد صلب جيـد يسمى الذكـير والذحل الثأر وقـد ندم لما لم يستطع قـتلها وكـانت قاهرة له وغالبة لما خاس بالعهد يعنى نقضه.

قال ابن قتيبة وكانت العرب تضرب أمثالاً على ألسنة الحيوان، وذكر هذه القصة وقول النابغة:

ولَحِـقتُ بالـنسب الذى عـيَّـرتَنِى وتركتَ أصـلك يا يزيـدُ ذمـيـمـا

صريـح فى أن النابـغـة تـرك بنـى ذبيان، ولحق بضنة بن كثيـر بن عذرة وقال أبو عبيدة: كان يزيد بن سنان بن أبى حـارثة يَمْحَشُ المِحَاش وهم بنو الخصيلة ابن مرة وبنو نُشْبَةَ بن غيظ بن مـرة، على بنى يربوع بن غيظ بن مـرة، رهط النابغة فتحالفوا على بنى يربوع بن غيظ على النار فسُمُّوا المِحاش لتحالفهم على النار، ثم أخرجهم يزيد إلى بنى عذرة بن سعد، فقال يزيد:

الحق بسَـحْـمَـةَ إن أصلك فـيـهم حَقٌّ بن سَـحْـمـة أن يكون لـيـئـمًـا

فقال النابغة يرد على يزيد:

جمع محَاشك يا يزيد...

وقد ذكرت خبر أبى عبـيدة لأؤكد الشىء الذى لا يصدق، وهو أن النابغة الذى كان يَحْمِلُ هموم ذبيـان ويضعها على ظهره أنكرته ذبيان، وأخـرجته منها، ثم هو

من أكرم رجالات العرب، وأشرفهم، وأحكمهم، وقلت هذا أيضًا لأعود إلى قصيدته ذات الصفا لأنها ليست أغرب شعره وإنما هى من أغرب شعر العرب لبنائها على هذا الذى كان يسميه حازم الاختلاق الامتناعى، يعنى القصص الخرافى الذى كان السمت الغالب على شعر اليونان، وذكر حازم مثالا له من شعر العرب قصيدة ذات الصفا هذه، ولك أن تضيف إليه قصة الدُّرة التى كان يحميها فى قاع البحر مارد من غواة الجن فى قصيدة الأعشى أو التى كان يحميها فى قاع البحر الحية الموكلة بحراسة الدر فى قصيدة الفرزدق. والذى هو أهم من كل هذا أن النابغة لم يجد ما يحدث به عن هذا الشأن الغريب الشاذ المتفرد فى غرابته وشذوذه وهو إخراج ذبيان له من دياره، ونزعه من حسبه ونسبه، أقول لم يجد النابغة ما يُعبِّرُ عن هذا الشأن المفرط فى الغرابة والشذوذ إلا هذه القصة التى هى من أكاذيب الخيال المحض والتى هى فى شعره وشعر غيره غريبة شاذة خارجة عن المألوف، فاختار الغريب الخارج عن المألوف فى الشعر ليعبر به عن الغريب الخارج عن المألوف فى أبْشَع حدث فى حياته.

وحسبى هذا وعليك أن تراجع القصيدة وأن تستخرج منها ما أسكنه النابغة فى كلماتها، وصورها، وأحداثها من مرارة، أشعر أنا وأنت بها بعد أكثر من خمسة عشر قرنا فكيف كان هو؟

وأعجب من يزيد بن سنان كيف استجاب له المحاش وكيف اجترأ على أن يخلع بنى يربوع بن غيظ بن مرة من أرضهم وأين كان أخوه هرم وهو من أشد الناس تعلقا بمكارم الأخلاق وأين كان ابن أخيه قيس بن خارجة بن سنان الذى روى عنه الجاحظ أنه ضرب بسيفه مؤخرة راحلة الحاملين فى شأن حمالة داحس والغبراء، وقال لعمه هرم وابن عمه الحارث ما لى فيها أيتها العشمتان؟ يريد ماذا أبقيتما لى من فضل بعد تحملكما الحمالات. والعشمتان مثنى عشمة وهو الكبير اليابس من الهزال، أقول أين كان هؤلاء الرجال؟ لا شك أنهم هم الذين أرادهم النابغة بقوله:

أجِـدّكم لن تَـزْجـروا عن ظلامــة　　　　سـفـيـهـا ولن ترعَــوْا لودى آصـره

وقد طلبت منك أيها القـارئ أن تستخرج المرارة التى أودعهـا النابغة فى طيات كلامه وأنا أريد مثل قوله (ولن ترعَوْا لودى آصره).

وقد كنت وأنا أقـرأ شعر النابغة وزهيـر أجد شيـئا لا أستطيع تفسيره وهو أن زهيرا المزنى أقام أكثر ديوانه على الحـرب التى دارت بين عبس وذبيان وكان يعيش فى معمعة هذه الحرب، وبين القبيلتين العظيمتين يحذر ويُخَوفُ من خراب الديار، ويُبشِّع الحربَ، ويذكر أحـمر عاد ويضع هَرِمًا والحارث على رأسه، لأنهمـا سعيا لإدراك السِّلم إلى آخـره وأجدِ ديوان النابغـة الذبيانى الذى عـاش كمـا قلت وهو يضع هموم ذبيان على رأسه وليس فيه بيت واحد فى هذه الحرب، وكان مع زهير فى زمن واحـد، وكنت أسأل نفـسى أين كان النـابغة من هذه النار التى ضَـرِيت وتضرَّمت فى بنى أبيه؟ ولم أجد فى تراجم النابغـة ما يعين على فهم هذا، والذى أرجحـه أن النابغة ترك بنى ذبيان إلى عـذرة بن قضاعة قـبل هذه الحرب، وأنه لم يشارك فـيها ولم يـشارك أحد من بنى يربوع بن غـيظ الذين هم قومـه لأنه خرج وخرجوا معه.

وبقى فى نفسى من هذا التـاريخ المغيب شىء من المفيد أن أقـوله إن صوابا وإن خطأ وهو أننى أجد فى قول النابغة فى قصـيدة الحية ما يرجح أن نسب بنى يربوع ابن غيظ قومه لم يكن فى ذبيان، وإنما كان فى ضِنّة وذلك قوله:

فـإن يك مـولانا تَـجـانَف نصـرُهُ　　　　وأسْـلَـمـنـا لُمـرّة المـتـظـاهـره

وتجانف نصره يعنى تأخر، وهو عتـاب لبنى ذبيان الذين لم ينصروهم على مرة الذين جمعَّـُوا لهم الجموع، والذى أريده فى هذا البيت أنه قـال (فإن يك مولانا) فجعل بنى ذبيان مواليهم، ولم يقل قومنا مثلا، وكأن بنى يربوع قومه كانوا حلفاء لذبيـان، ولم يكونوا منـهم وهذا كـثيـر فى الـعرب، قلـت إن هذا يرجح وليس بقاطع، لاحتمال أن يكون قال مولانا على وجه من السخرية ومجاراة باطلهم وأننا

لو لم نكن منكم وكنا حلفاءكم لوجب عليكم نصرنا ثم إننى أجد فى شعر النابغة هوى لبنى عذرة، ولما أراد النعمان الغسانى غزو بنى حُنٍّ وهم من أولاد عذرة، نصحه النابغة بألاَّ يَفْعل، ولما لم يستجب له أرسل النابغة إلى بنى ذبيان أن يمدوا بنى حُن، وأن النعمان يريدهم ففعلوا والتحم قوم النابغة ببنى حُن فى لقاء الغساسنة وكسروا الغساسنة فقال النابغة فى ذلك:

لقد قُلْتُ للنعمان يوم لقيتُهُ ... يُريد بنى حُنٍّ بُبْرقَةَ صادر
تجنب بنى حُنٍّ فإن لقاءهم ... كَريهٌ وإن لم تلق إلا بصابر
عظام اللِّها أولاد عُذْرة إنهم ... لَهامِيمُ يْستَلْهُونها بالجَراجِرِ
هم منعوا وادى القِرى من عَدُوِّهم ... بجمع مُبير للعدو المُكَاثِرِ

«وبرقة صادر» موضع، وعظام اللها بكسر اللام يعنى سرعة الأكل، وأراد أكلهم لعدوهم، وقال أولاد عذرة لأن عذرة جد لبطون قضاعة لأنه ابن قضاعة، وأراد التنبيه إلى كثرة عددهم، واللهاميم الجماعات الكثيرة يَسْتَلْهُونها يبتلعونها، والجراجر البطون. هذا والله أعلم.

يلاحظ القارئ أن شعر النابغة الذى أثارته حادثة واحدة يشبه بعضه بعضا وتتكرر فيه عناصر واحدة، . وإن كانت تختلف صورها ضروبا من الاختلاف على وفق سياق كل قصيدة، فلو راجعت شعره الذى قال فى غارات عمرو بن الجُلاح الكلبى قائد الغساسنة على ذبيان لوجدت هذا التشابه الظاهر. فالرائية التى مطلعها:

عوجوا فحيوا لنُعم دِمْنَةَ الدار ... ماذا تحيُّون من نُؤىٍ وأحْجار

والتى انفصلت عنها بقيتها فى كل الروايات إلا رواية أبى زيد القرشى وهى الأربعة عشر بيتًا التى تبدأ بقول:

«لقد نَهَيتُ بنى ذبيان عن أُقُرٍ» إلى قوله:

وعـيَّـرتَنِى بنو ذبيـانَ خَشْـيَتَـه   وهل علـيّ بأن أخشـاك من عـار

أقول لو راجعت هذه القصيدة ووضعتها بإزاء قصيدته التى أولها:

أهاجك من سـعـداك مَـغْنى المعـاهد   بروضَـةِ نُـعـمىً فـذات الأسَـاوِد

لوجدت عناصر متشابهة بين القصيدتين تظهر وتختفى.

وأبرز هذا التشابه أنك تلاحـظ حُرقة ظاهرة لاذعة عند ذكر الديار والصـاحبة، وهذا ظاهر جداً فى الرائية وقـد نبهت إليه فى دراستها فى كـتاب قراءة فى الأدب القديم، وهذا فى هذه الدالية ظاهر أيضًا وتراه ماثلا فى أول كلمة قالها وهى كلمة (أهاجك من نعماك) وسأذكرها لك بين أخواتها ليظهر لك المراد:

أهاجَك من نُعـمـاك مـغنى المعـاهد   بِروْضَـة نُـعْـمىً فـذات الأسَـاوِد
تَعَـاوَرهـا الأرْواحُ يَنْسِـفْن تُـربَهَـا   وكُلُّ مُـلِثٍّ ذى أهاضـيبَ راعـد
بهـا كـل ذيَّالٍ وخَنْسـاءَ ترْعَـوِى   إلى كُـلِّ رجَّـافٍ مـن الرَّمْل فـارد
عهـدتُ بها سُـعْدى وسُـعْدى غريرةٌ   عـروبٌ تـهـادى فى جَـوَارِ خـرائدِ

نُعْـمِىً وذات الأساود مـواضع، والأرواح الرياح، والمُلِثّ المطر الـكثيـر الدائم والأهاضيب جـمع هَضْبة وهى الدُّفعـةُ من المطر، والذيَّال ثور الوحش لأنه طويل الذنب، والخنسـاء البـقـرة الوحشيـة، وتَرعَـوِى تنعطف، والرجـاف من الرمل المضطرب. والفارد المنقطع البعيد فيألفه الوحش وأراد أن الثور والبقرة يلوذان إلى الرمل البعيد المنقطع.

راجع «أهاجك من سعداك» وتأمل كلمة «أهاج» وراجع أبيـات القصيدة لتدرك حقيقـة كلمة «أهاج» وتبين كيف مدح النابغة عمـرو بن الجلاح الذى صبَّح سرب ذبيان وبيوتـها، وقال فيه «لعـمرى لنعم الحى صبَّح سربنا وقـومنا» وكيف وصف قوته وحصـافة رأيه وشدة كيـده، وكيف يؤدب من خرج على الغسـاسنة، وكيف تُشيّعُه شيمة وجَدٌّ إذا خاب المجدون صاعدُ، وكيف استاق من ذبيان عقائلهم:

وثَابَ بـأبكارٍ وعــونٍ عــقــائلٍ أوانسَ يَحْـمـيـهـا امـرؤ غـيـرُ زاهد
ويَخْطُطْن بالـعيـدان فى كل مَـقْـعَـد ويخـبـأن رُمَّــان الثُّـديِّ الـنواهد
ويضـــربن بالأيْدى وراء بَـراغــزٍ حـسانِ الوجـوهِ كـالظِّـبَـاء العواقـدِ
غــرائرَ لم يَلْقَــينْ بأســاء قَـبْلهــا لدى ابن الجُـلاح مـا يـثـقن بوافـد

وهذا وصف لنسـاء ذبيـان فى الأسر وفـيهـن عقـرب بنت النابغـة، ويخطط بالعيدان كناية عن الحيرة والحزن، والبراغز أولاد الظباء وشـبه بها أولادهن لأنهن مأسورات بأطفالهن، والظباء العواقد التى تلوى عنقها وهذا أظهر لحسنها.

لابد من قراءة كل هذا حتى أفهم المعنى الذى جـرى فى نفس النابغة وعبَّر عنه بقوله «أهاجك من سعداك» ثم هذه الإضافة فهـو لم يقل سعدى كما قال فى غير ذلك وكما قـال غيره، وإنما أضافها إليـه فأفادت الإضافة مـعنى يظهر لنا إذا قرأنا قـوله فى الأبيات اللاحـقـة لما ارتحل إلى ابن الجـلاح وقال له فِـدًى لك من ربٍّ طريفى وتالدى، والرب معناه السيد ثم قال له:

فسكّـنْت نَفْسِى بعـدَ مَا طَارَ رُوحُـها وألْبَـسْتَنى نُعْـمَى ولَسْتُ بشــاهد

وراجع كلمة (فـسكَّنْتَ نَفْسى بعـد ما طار روحهـا» ثم عد إلى كلمة سـعداك وكلمة «أهاجك» حـتى تستوفى مـعناها، قلت إن التحرق الـشديد فى هذا المطلع يلتقى مع التحرق الشـديد فى مطلع «عوجوا فحيوا لنعم دِمْنَةَ الدار» ولا تجـد شيئًا من هـذا فى مطلـع «يا دار ميَّـة بالعليــا فالسند» ولا يمكن أن تجده لأنه فيهـا يتبرأ مما رُمِىَ به فى أمر المتجردة فلا يجوز أن يشتاق فى مطلعها للصاحبة.

ثم إنك واجد إشارات وتشابهات من ذلك قوله:

تَعَــاوَرهـا الأرواح يَنْسِــفْنَ تُـرْبَهــا وكُلُّ مُـلِثٍّ ذى أهاضــيب راعــد

والمعنى تتعاورها الرياح تنسف ترابها كمـا تتعاورها الأمطار الكثيرة الغزيرة ذات الرعد، وكلمـة «يَنْسِفْن تُرْبَها» تجعل المعنى فى قـوله تعاورها الأرواح يكاد يمكسك

بيد المعنى فى الرائية فى قوله: (وغيَّره هوج الرياح بهابى التُّرْب موَّار» والموّار الكثير الموران الشديد الحركة، وهو لم يقل هنا هوج الرياح وإنما قال الأرواح من غير وصف بالهوج، ثم جعل كلمة «ينسفن تربها» بدل الوصف بالهوج، لأنها لا تنسف الترب إلا إذا كانت هوجًا ولا يمكن أن تخلو صورة هذه الرياح التى تَنْسِف أو الرياح الهوج أو المطر ذو الأهاضيب والرعد، من الإشارة إلى غارة ابن الجلاح الذى صبّح سرب ذبيان وبيوتها وآب بأبكار وعُونٍ عقائل.

ثم إن قوله فى الدالية:

عهدتُ بها سُعدى وسُعْدى غريرةٌ ... عروبٌ تهادى في جَوَارٍ خرائد

والغريرة من الغرارة والعروب المتحبِّبَة إلى ذويها والجوارى جمع جارية والخرائد الكريمات، أقول هذا البيت يلتقى التقاء الحميم بالحميم بقوله فى الرائية:

ولقد أرَانِى ونُعْمًا لاهيَيْن بها ... والدهرُ والعيشُ لم يَهْمُمْ بإمرار

أيام تخبرنى نُعْمٌ وأخبرها ... ما أكتم الناسَ من حاجِى وأسْرَار

وهذا كله من بيان قوله «عهدت بها سُعْدى وسُعْدى غريرة». وكله حديث عن أيام طفولة ونشأة واحدة، وهذا أشبه بنساء قومه وقوله: فى سعدى (عروب تهادى فى جوارٍ خرائد) من معدن قوله فى الرائية «نواعمُ مِثْل بُيَضْات بمحنيةٍ».

وراجع وصف الأسيرات فى الدالية.

فثاب بأبكار وعونٍ عقائل ... أوانسَ يَحْميها امرؤ غيرُ زاهد

ويَخْطُطْن بالعيدان فى كل مَقْعَد ... ويخبأن رُمَّان الثُّدِىِّ النواهد

ويضربن بالأيْدى وراء براغِز ... حسانِ الوجوهِ كالظباء العواقِد

وضعه بإزاء قوله فى الرائية:

لا أعرفن ربربا حُورا مدامعُها ... كأنهن نعاجٌ حول دُوَّار

ينظرن شـزْراً إلى ما جـاء عن عرُضٍ بأوجـــه مُنكـرات الرِّق أحــــرار
خلف العَـضَارِيطِ لا يوقَـيْن فاحـشةً مُـسْـتَـمْـسِكات بأقْـتَـاب وأكْـوَارِ
يَذْرِين دَمْـعـا على الأشفـار منحـدراً يأمُلْـن رِحْلة حِـصْنٍ وابـن سـيَّـارِ

قوله «لا أعـرفَنْ رَبْرَبًا» قال الـشيخ الطاهر: هذا من القـول المحكى، يعنى أنه نهاهم عن ذى أقر وقال لهم لو اقتحمـتم هذا الحِمَى ستقع نساؤنا فى الأسر، ولا الناهيـة فى قوله لا أعرفـن ربربا مبالغـة فى النهى بطريقـة الكناية والربرب قطيع الظبـاء، والمراد نساؤهم ودُوَّار صنم تطوف به النســاء كأنهن نعـاج فى الملاء المذيّل كما جاء فى شـعر امرئ القيس، والنظر الشزر هو النظر بمؤخر الـعين والعضاريط جمع عُضروط بضم الأول وهو الخادم وقوله لا يُوقين فاحشةً يعنى ليس معهن من يحميهن من الأذى. وقوله يأمُلْن رحلة حِـصْن وابن سيار من التهكم وأراد حصن ابن حذيفة بن بدر ومنظور ابن سيار ورحلتهن لافتكاك السبى.

ولابد من مـلاحظة الفـرق بين المقـامـين لأنه فى الداليـة يُحـدث عنهن بعـد أسرهـن، فهن يَخْطُطْن بالعـيدان، ويخـبأن رمـان الثّدىّ ويضـربن بالأيدى وراء براغزهن أى أطفالهن، وفى الرائية يُحذر ويقول احذروا من ابن الجلاح واتركوا ما حماه لأنِّى لا أطيق أن أرى ربربا حورا مدامعها ويكون حالهن ما وصف وقد أومأ فى الرائية إلى الحماقة التى يمكن أن توقع الأحرار النواعم فى الأسر بقوله:

إن الحُـمُـــول التى راحَتْ مُـهَــجّـرةً يتـبـعْنَ كلَّ سَـفِـيـه الرأى مِـغْـيـارِ

وكأنه توقّع أن القـوم سيبتليـهم الله بسفيه الرأى، ويبـتليهم مرة أخرى باتِّـباعه وهذان بلاءان: وجود سفيه الرأى فى القوم بلاء، واتباعهم له بلاء فوق بلاء.

والبلاء الثانى أنكى وأفتك.

وإذا راجعنا حديثـه عن ابن الجُلاح فى القصائد المختلفـة التى دارت حول غزوة ذبيان واجتياحه أرضهـا كالريح التى تنسف والمطر الذى يَعْصِفُ ثم إنعامه على بنى ذبيان بتخليته أسراهم، وجدنا بعض كلامه فى هذا من بعض من ذلك قوله:

وشِـيمَـةِ لاوانٍ ولا واهِنِ القُـوى   وجَـدٍّ إذا خـاب المجُـدُّون صـاعـدُ

وهو من قوله فى داليَّة أخرى:

إلى مـا جـد مـا ينقضُ البُـعـدُ همَّه   خـروجٍ تروكٍ للـفـراش المُمَـهَّـدِ

والقول بأنه «لاَوانٍ ولاواَهن القُوى» من معدن القول بأنه «لا ينقض البعدُ همَّه» «تروكٍ للفراش الممَهد».

ومنه قوله:

صَـبَـحْـتَ بنى ذبيـان منك بغـارة   جَـرَت لك منها السـانحـاتُ بأسعُـدِ

أصـابهم قـسـرا فـأضْـحَوْا عـبيـدَه   فـجلَّـلَهـا نُعـمَى ولـم يتَـشَـدَّدِ

وقوله «جَـرَت لك منها السانحات بأسْـعُد» من قوله «وجَدٍّ إذا خـاب المجدون صاعد» وهو احتياط جيد من النابغـة لأنه يقول إن انتصارك على ذبيان فيه قدر من تصاريف القـدر، وهو جَدٌّ صـاعد ومما جرى لك به الفـأل، وقوله «صَـبحتَ بنى ذبيان منك بغارة» هو من قوله «لنعم الحى صَبَّح سِربَنَا وأبياتنا».

وقوله:

أصـابَ بنى غَيْظٍ فـأضْـحَوْا عـبيـده   وجَلَّلَهـا نُعْـمَـى على غَـيْـر واحـد

هو قوله:

أصـابَهُم قَـسْـرا فـأضْـحَـوْا عـبـادة   فـجلَّـلهَـا نُعْـمى ولَـمْ يتـشَـدَّدِ

وقوله: فلابُدّ من عَوْجَاء تَهْوِى براكبٍ إلى ابن الجلاح هو من قوله «وناجية عدَّيْتُ فى مَتْن صَحْصَحٍ إلى ابن الجُلاح» وللنابغة قصيدة أخرى فى هذا الباب مطلعها:

أهَاجَكَ مـن أسـمـاء رسـمُ المنازل   برَوْضَـةِ نُعْـمِيٍّ فـذات الأجـاول

وسأعـود إلى هذا المطلع مع نظرائه والذى أريده أنه حدَّث عن نسـاء ذبيان بمثل حديثه فى الصور الـتى مضت، وأنه حذّر من اقتحام حمى الغسانى حتى لا تقع النساء فى الأسر قال فى ذلك:

نَصَحتُ بنى عَوْف فَلْم يتقَبَّلُوا وصاتى ولم تَنْجحْ لديهم وسائلى
فقلتُ لهم لا أعرفَنَّ عقائلا رعَابيبَ من جَنْبَىْ أرَيكِ وعاقلِ
ضواربَ بالأيدِى وراء براغزٍ صغارٍ كآدام الصَّرِيم الخَواذلِ

***

وبيضٍ غريراتٍ تفيض دمُوعها بمُسْتَكْرهٍ يُذْرينه بالأنامل

وقوله:

لا أعرفَنَّ عقائلا رَعَابيبَ من جَنْبى أرِيك وعَاقل

من قوله:

لا أعرفَنْ ربربا حُوراً مدامعها كأنهن نعاج حول دُوّارِ

والثانى أجود.

وقوله:

ضوارب بالأيْدى وراء براغزٍ صغارٍ كآرام الصَّرِيم الخواذل

من قوله:

ويَضْربْن بالأيْدى وراء براغزٍ حسانِ الوجوه كالظِّباء العَواقدِ

والثانى أجود.

وقوله:

وبيضٍ غريراتٍ تفَيضُ دموعُها بمُسْتكْرهٍ يَذْريَنه بالأناملِ

من قوله:

يذرين دمعا على الأشفار مُنْحَدِرا يأمُلْنَ رِحْلة حِصْن وابنِ سَيَّار

والثانى أيضًا أجود.

ويقى أن أضع المطلعين متجاورين كل بيت فى اللامية مع نظيره فى الدالية:

أهاجك مـن أسـمـاءَ رسْمُ المنازل بروْضَـة نُعْـمِىٍّ فـذاتِ الأجـاول

وهو من معدن قوله:

أهَاجَك من سُعْداك مَغْنَى المعاهدِ بروضـة نُعـمىٍّ فـذاتِ الأسـاودِ

أربّت بـهـا الأرواحُ حـتى كـأنما تهَـادَيْنَ أعْلَى تُربْهـا بالمنـاخل

أربت الأرواح لزمت وألَحَّتْ والمناخل جمع مُنْخل.

وهو من قوله:

تعـاورَهـا الأرواح ينْسِـفْنَ تُـربْهـا وكلُّ مُـلِثٍّ ذى أهاضـيبَ راعِـدِ

والشطر الثانى من هذا البيت هو رأس بيت اللامية:

وكلُّ مُـلِثٍّ مكفـهـرٍّ سَـحَـابُه كَـمِيش التَّـوالى مُـرْثعِنّ الأسـافل

وكميش التوالى بعضهُ فى إثر بعض بسرعة، والكميش السريع مرثعن الأسافل مضطرب الأسافل، والمُلثُّ الكثير الدائم، وكل البيت راجع إلى «ملث ذى أهاضيب راعد» لأنه ليس فيه شىء خارج عن هذا المعنى:

قوله:

عـهـدتُ بهـا حـيّاً كـرامًـا فـبُدِّلَتْ خَنـاطيلُ آجـالِ الـنعـاج المطـافل

والآجال جمع إجل وهو القطيع من الوعول، والخناطيل الجماعات المتفرقة من الأنعام أو الوحش واحدها خنطولة، والبيت من قوله فى الدالية:

عهـدت بها سعـدى وسُعْـدى غريرةُ عـروبٌ تـهـادى فى جَـوَارٍ خـرائد

وإن كان هنا زاد خناطيل آجال وليته ما زاد وبقيت العروب تهادى فى جَوارٍ خرائد.

وقوله فى اللامية:

تـرى كُلَّ ذيّـالٍ يعـــــارض رَبْرَبـا   علـى كل رجّـــافٍ من الرمل هـائل

هو من قوله فى الدالية:

بهـا كـل ذيَّال وخنســـاءَ تَرْعَــوى   إلى كـل رجَّـافٍ مـن الرَّمْل فـــارد

وقد وضع يعـارض مكان ترعوى فـتغـيّر المعنى لأن المراد فى الداليـة أن الثور الذيال والبـقرة الخنسـاء ينعطفـان إلى مُنْقطع الرمل البـعـيد المنقطع، وهذا شـأن الوحش، ومـعنى يعارض فى اللامـية أن الذيـال يعارض القطيع على كل رجَّـاف وهذا معنى آخر.

وعلاقة اللامية بالدالية تجاوزت أحوال التـشابه التى نجدها كثيراً عند الشعراء إذا تقاربت معانى الشعر، ومقاصده، حتى إنك لترى بعض أبياتها كأنه ملفق من كلام للنابغة، ومـثل هذا يجعلنى أشك فى هذا الشعـر لأنه ليس فيه من التجـويد ودقة العبـارة ما ألفناه فى شعر النابغـة وأدع هذا لأتناول أبياتا له من شعـره القليل جدا وأعنى به الذى ليس ثمرة مـا ألم به من مِحنَ سواء كانت محنة المتـجردة أو محنة هموم ذبيان التى تحمَّلها بِصَبْـرٍ وحكمة وكرامة أيضًا ثم كوفئ منهم بما لاقت ذات الصفا من حليفها.

ولـم أجد للنابغة شعراً يُذكر فى الصيد ولا فى الشراب ولا فى لهو النساء وهذه من أبرز أبواب الشعر الجاهلى والتى امـتـدت مـن الجـاهلية زمـنًا طويلاً على حد ما تراه فى ديوان ابن المعتز وغيره.

والذى بين يدىّ وله موقع جليل من نفـسى أبيات له وصف فيهـا الفرس وذكر فيها القطا، ولها من العمق ما لا تجده فى كثير من شعره ومن شعر غيره وفيها من الصقل والتجويد ودقة الإشارة والخلوص الصافى لصَنْعة الشعر ما لا أجد له نظيراً إلا فى النادر جداً، وهذه هى الأبيات:

لَقَدْ لحِقْتُ بأولى الخيل تَحْملنى كَبْداء لا شَنَجٌ فيها ولاَ طَنَبُ
مارِيَّةٌ مثل مَرْيِ الدَّلْو مُركَضَةٌ إذَا الحميم على الأعْطاف يَنْحَلبُ
لا عيب فيها إذا ما اغْترَّ فارسُها شأوَ الفُجَاءة إلا أنَّهَا تَثِبُ
تخطو على مُعُجٍ عوجٍ مَعاقِمُها يَحْسِبْنَ أن تُرابَ الأرض مُنْتَهَبُ
تهوى هُوِيَّ دَلاَةِ البئر أسْلَمَها بَيْنَ الأكُفِّ وبين الجَمَّةِ الكَرَبُ
أو مَرَّ كدريَّةٍ حذَّاءَ هيَّجَها بَرْدُ الشَّرائع من مُرَّان أو شَرَبُ
أهْوى لها أمْغَرُ الساقين مختَضِعٌ خُرْطُومُه من دماء الطيرِ مُخْتَضَبُ
حتى إذا قبَضَتْ أظفارُهُ زغَبا من الذُّناتى لها أوكادَ يقْتَرِبُ
نجت بضَرْبٍ كَرَجْعِ العَيْن أبطؤُه تعْلو بجؤجئها طوراً وتنقلب
تدعوُ القَطَا لقصير الخَطْم ليس لَهُ أمَامَ مَنْخَرِه ريشٌ ولا زَغَبُ
حذَّاء مُدْبِرَةً سكَّاءُ مُقْبِلةً للماء فى النحر منها نَوْطَةٌ عَجَبُ
تدعو القَطَا وبه تُدْعى إذا انْتَسَبَتْ يا صِدْقَها حين تَلْقاها فَتَنْتَسبُ
تَسْقِى أُزَيْغِبَ تَرْويه مُجاجَتُها وذَاكَ من ظِمْئِها فى ظمئه شُرُبُ
مُنْهَرِتُ الشِّدْق لم تَنْبُت قوادمُه فى حاجب العين من تسبيده زَبَبُ

وهذه الأبيات كلها فى وصف الفرس، منها خمسة أبيات ذكر فيها تشبيهها بالدلو، وأربعة أبيات ذكر فيها تشبيهها بالقطاة التى هوى لها العُقاب، وخمسة أبيات ذكر حكايتها بعد ما نَجَتْ من العقاب والْتقت بأفراخها تسقيها من مجاجتها.

وكلامى الذى ذكرته فى استحسان هذه الأبيات كان مردُّه إلى هذه الأبيات الأخيرة التى نجت فيها القطاة وهى عائدة من الماء وحوصلتها مليئة تَسْقِى مُنْهرِتَ الشِّدق لم تَنْبت قوادمُه، ولهذه الصورة أثر قوى جداً فى نفسى، أمومة قاتلت بَغْيا

شرسا لتنجو بالماء فى حوصلتها لتسقى أفراخها وسأعرض إلى الأبيات مختصراً الكلام فيها لأن الكتاب طال وسأبدأ بذكر الفصل الأول.

قوله:

لقد لحِقْتُ بأولى الخيل تَحْمِلُنى ... كَبْداءُ لا شَنَجٌ فيها ولا طَنَبُ

جملة «لقد لحقت بأولى الخيل» هى الجملة الأم وبقية البيت جملة حالية هى من تمام معنى الجملة الأم، ومن متعلقاتها، وهذه الجملة الأم شائعة فى الشعر يأخذها الشعراء بعضهم عن بعض من غير استرفاد، ولا سرق، وكأنها صارت من الملكيات العامة المشتركة بين الشعراء، ولعل السر فى استحسانها وتنقلها الحر فى الفضاء الشعرى العام هو أن فيها معنى كريمًا جداً، وهو إصرار الفارس على أن يكون فى أول خيل قومه، ليكون بذلك درعا يقى قومه بنفسه، وهذا جوهر البطولة، وجوهر الفروسية، ليس البطل هو القوى الشديد، وليس الفارس هو القوى الشديد، وإنما الفارس من يجعل نفسه درعا يَحْمِي أُمَّتَهُ.

وراجع هذا البناء تجد أن الجملة الأم (لقد لحقت بأولى الخيل) أكدت بمؤكدات أولها لام التوكيد الداخلة على قد، والمراد دخولها على الفعل ولكنهم يعتبرون كلمة قد جزءًا من الفعل، فأدخلوا عليها حرف التوكيد، ثم إن كلمة «قد» نفسها تفيد التحقيق وهذان توكيدان، والتوكيد الثالث هو الباء الداخلة على المفعول (بأولى الخيل) والأصل لحقت أولى الخيل، وهذه الباء تزاد فى مثل هذا للتوكيد، ثم إن الجملة الحالية (تحملنى كبداء) إلى آخره هى التى نَمَتْ ونَمىَ معها المعنى وذلك بطريق نقل الحديث إلى فاعل تحملنى، وهى الكبداء والمراد الضخمة، والشنج تَيَبُّس فى الأعضاء والطنَبُ استرخاء فيها، وكل ما فى القصيدة بعد ذلك هو حديث عن هذه الكبداء، فهى مسرعة مثل مَرْى الدلو، وهى تخطو على مُعَج وتهوى هُوِىَّ دلاء البئر وهى التى تمرُ مَرَّ القطاة التى أهوى لها أمغر الساقين إلى نهاية القصيدة.

وهذا معناه أن الشاعر انتقل من الجملة الأم إلى الجملة الحالية الملحقة بها، وبنى قصيدته عليها، وهذا فى البناء اللغوى للشعر القديم مُؤَسَّسٌ على أصل معنوى فى الشعر نفسه وهو أن الأغراض الأصلية أو المعانى الأصلية غالبًا ما يكون الكلام فيها مختصرًا، ثم تكون الإطالة والإفاضة، وصَنْعة الشعر فى المعانى الثوانى التى يؤتى بها لبيان هذه المعانى الأصول، وكان حازم يسميها المعانى المُطيفة أى التى تطوف حول الأصول وترمى بأضوائها من جوانبها فتضىء منه ما نريد، ومثاله هنا هو القطاة التى جىء بها لبيان سرعة الفرس، وهو المعنى الأصلى ثم الإفاضة فى هذا المعنى الأصلى، والإفاضة الأكثر فى تفريعاته، وتحسين هذه التفريعات، وتجويدها، وتَثْقِيفها كالذى تراه هنا من قصة العُقاب، وصراعه مع القطاة، ونجاة القطاة، وندائها أفراخها، ووصولها إليهم، والماء فى نَوْطتها أى حوصلتها ثم تسقيهم مُجَاجَتَها إلى آخره.

وهذا باب جليل فى الشعر لم تتوفر عليه دراسة تكشف سر بيانه، الذى هو سر بلاغته وسر بقائه وسر تفوُّقه، وأشهد أنه ملىء بالغموض وأشهد أننى لا أستطيع الإجابة عن أكثر الأسئلة التى أطرحها على نفسى لمعرفة الوجوه والأسرار، وخصوصًا فى هذا القصص الذى يقوم عليه هذا الشعر والذى تراه فى الظاهر يبعد بنا عن المعنى الأم، فإذا قلت لى إن ذكر القطاة هنا جىء بها لبيان سرعة الفرس، ولابد أن يكون كل شىء فى خبر القطاة له مغزى فى بيان هذه السرعة، فأى مغزى يفيده قوله فى قصة القطاة:

تدعو القطا وبه تُدْعَى إذَا انتسبت ... يا صِدْقَها حين تَلْقَاها فَتَنْتَسِبُ

لا أستطيع أن أجيب إجابة تقنعنى أنا، وإنما أقول هذا من غوامض هذا الشعر الكثيرة التى لا تزال محجوبة عنا، وقد كان علماؤنا يجدون مثل ذلك فى القرآن ويقولون: والله أعلم بأسرار كلامه، وهكذا إذا التقيت بالشعر من غير واسطة المناهج الدخيلة استطعت أن ترى غوامضها وإلا كان كلامك فيه بعبعة مستنيرة

وأعود إلى البيت لأقول إن قولة «لا شَنَجٌ فيها ولا طَنَبُ» هو نفى للعيب فقط وليس فيه بيان مزية، وإنما هو كما يقولون من باب التخلية، وقد كان هذا طريقًا شائعًا عند النابغة يبدأ فى كثير من كلامه بالتخلية من العيوب ثم أجده بعد هذه التخلية يأتى بصفات هى من أنبل الصفات وأعلاها يعنى تكون التحلية عنده بعد التخلية من أرقى ضروب التحلية وراجع قوله فى البيت بعده:

مـا رِيَةٌ مثل مَرْى الدلو مُركَضَةٌ إذا الحميمُ على الأعْطُاف ينْحلب

المارية بالياء غير المشددة السريعة الخفيفة ومرى الدلو سرعته وهو يهوى على الماء والمركضَة اسم مفعول يعنى المروَّضة المدّربة التى أزال الركض والترويض شموسها وجعلها لَيِّنة سَهلْة فى سرعتها، ولاحظ أنه قال مثل مَرْى الدلو، ولم يقل مثل هوى الدلو، وذلك ليعيد مصدر مارية فيتعادل الكلام ويتشارب، ويتناسق، وتجرى فيه نفحة نغم، ونفحة طُرْبة، وكأنه استعذب نغمة تكرار حرف الميم، فأعادها فى قوله «الحميم» ثم أعاد الحاء فى قوله: «ينحلب» كما أعاد العين فى قوله «على الأعطاف» ولا يجوز أن نتجاهل النغم الناتج عن تكرار الحروف لأن الجناس الذى هو من أعلى صور الرنين ليس إلا تكرار حروف، ودع هذه فليست هى أرقى ضروب التحلية التى أردتها وإن كانت منها بسبيل وإنما أردت تقييد تشبيه مريها بمرى الدلو بقوله «إذا الحَميمُ على الأعطاف يَنْحلبُ» لأن هذه حالة يبلغ فيها الجهد ذِروته، وهى عند هذه الذروة، تَمرْى مَرْيًا كمَرْى الدَّلْو، ثم وهو أيضًا أهم أن هذا البيت مُتَضَمِّنٌ كل ما بقى من القصيدة لأنه ليس محض سرعة وإنما فيه إيماءة إلى الماء بذكر الدلو، وستجد الماء بعد ذلك فى كلمة الجَمّة وهى ماء البئر، وتجده كذلك فى بَرْد الشرائع، وليس هذا فحسب وإنما فيه إيماءة لطيفة جداً إلى الطفولة التى كانت نهاية الرحلة، وماثلة عند التقاء القطاة بالأُزيغَب ومُنْهرت الشدق وذلك فى كلمة (يَنْحلب) ومعناه أن الحميم وهو زبد عرق الخيل يخرج منها كما يخرج اللبن من الثدى، ولعل النابغة آثر صيغة المضارع فى قوله يَنْحلِبُ ليلفت بهذه الصيغة إلى الحدث، وعيوننا تراه وترى معه الثدى والتحلب،

والرَضاع، والطفولة، ومشهد الطفولة هو آخر مشهد فى القصيدة. قلت إن النابغة يبدأ أحيانًا بالتخلية ثم يردفها بالتحلية ويتأنق كل الأناقة فى هذه التحلية وأنا أريد بذلك حديثة عن البلوية التى رآها مخرجه إلى الحج فقد بدأ حديثه عنها بقوله:

لَيْسَتْ من السود أعْقابًا إذا انصرفت ... ولا تبيع بجَنْبى نَخْلةَ البَرمَا

ولا تستحسن المرأة لأن أقدامها ليست سوداء، ولا تكرَّم بأنها لا تَبِيع البَرَما أى ثمر الأراك، وخلاصة المعنى كما قال الطاهر: أنها ليست من سقط النساء اللائى يكتسبن ببيع الأشياء، ثم بعد هذه التخلية يأتى بأفضل ما توصف به المرأة وله قدرة بارعة على جمع كل الصفات فى أخصر الكلام قال بعد هذا البيت:

غراءُ أكْمَل من يَمْشِى على قَدَم ... حُسْنًا وأحْسَنُ من حاورته الكلِما

راجع جملة «أكمل من يَمْشِى على قدم» ولن تجد وصفا من أوصاف كمال النساء وحسنهن، وبهائهن، ونضارتهن، وغندرتهن، يخرج عن هذه الجملة، ثم راجع جملة «وأحسن من حاورته الكلما» ولن تجد فى الذكاء وسرعة البديهة، وصفاء النفس، ولطف العبارة، وسداد المعنى، وإصابة الغرض، لن تجد فى هذا الباب شيئًا يخرج عن هذه العبارة، وهذا حسبى فى هذه المسألة وأعود إلى البيت الذى يليه وهو قوله:

لا عَيْبَ فيها إذَا ما اغْتَرَّ فارِسُها ... شأوَ الفُجَاءة إلا أنَّهَا تَثِبُ

ولابد لك أن تضع «إذا ما اغتر» بجوار «إذا الحميم» لترى كيف ينادى الحذوُ الحَذوَ، ثم إنه ليس حذو لفظ فحسب وإنما هو حذو معنى، وأنه كما وصف السرعة البالغة غايتها فى وقت هو مظنة الفتور والإعياء كذلك هنا يَنْفى العيب فى اللَّحْظةِ التى هى مظنة وجود العيب، وهى لحظة مفاجأة الفارس لفرسه وطلبه منها أقصى ما عندها من السرعة ليبلغ شأو السباق أى نهايته، وعيبها فى لحظة مظنة العيب هذه أنها تَثِبُ ومعنى «اغتر فارسها» جاءها على غرة ومفعول اغترَّ محذوف أى اغترها والشأو السَّبق وهو مفعول مطلق لاغتر، وهذا يعنى أن فعل اغتر أجرى

فيه شوب مــن معنى الاستباق الذى هو من السبق الذى هو مــعنى شأو وأن الشأو أجرى فيه شــوب من معنى المغتر، الذى هو الأخذ على غــرة، لأن المفعول المطلق إذا جاء من غير لفظ الفعل آذن بشىء من تــشارب المعانى بين الفعل وهذا المصدر، وراجع جملة «اغتر فــارسُها شأو الفجاءة» ولا تُغفل تشــارب المعانى بين كلماتها، واحذر أن تظن أن شــأو مفعول به وقع عليــه فعل اغتر لأن هذا يُفْــسِدُ المعنى وإنما اغتر الفارس فرســه، اغترار الفجاءة يعنى المفاجأة أو استبق ســبق الفجاءة وأنا غير مــستطيع أن أحــضر إلــيك المعنى الذى أجده فى نــفسى وأنا أراجع هذه الجــملة، فعليك أنت أن تقلبهــا بلسانك، وأن تَنْدَسَّ بحسك فى كلماتها، وعــلاقاتها، وأن تتحبَّب إليها أيضا لأن الكلام لا يُفْضى لك بِســرِّه إلا إذا تحببت إليه تحبُّبا يفضى به هو إلى التحبُّب إليك، وحينئذ تجد فى الجــملة ما لا يستطيع غيرك أن يحدثك به، ثم تأمل موقعها وأنها جملة معــترضة وأن أصل الكلام لا عيب فيها إلا أنها تثب، وهذا هو الذى يسميه العلماء تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو من باب قوله:

ولا عَيْب فــيهم غيــر أن سيوفــهم   بهــن فلول مــن قـــراع الكتـــائب

وكأن هذا الحذو من البناء كــان مُحبَّبا إلى النابغــة فكرره فى كلامه، ثم إن هذا البيت كله مضموم إلى الذى قبله للدلالة على بهاء التحلية ونضارتها وتقدمها الذى يأتى به النابغة بعد التخلية كما قدمنا ومثله وأوقع منه قوله بعده.

تَخْطو على مُـعُجٍ عُــوجٍ مــعَـاقِمُـهـا   يَحْـــسَبْنَ أن ترابَ الأرض مُنْتَــهَبُ

وهذا البيت أكــرم من الأكــرم الذى قبله، وهو تأكيــد له وشــرح لكلمة «تَثِبُ» ولا أشك فى أن النابغــة وضع لنا عــلامــات تنبــئنا بطربه والعــلامــة هنا هى هذه العــذوبة النغــميــة التى تراها فى كلــمتى «مــعج عــوج» والمعج القــوائم والعــوج المعــوجَّة وهذا مما يستحسن فى الخيل والمعــاقم المفاصل، وهى فاعل عوج فالعِوَجُ فــيهــا وليس فى القوائم قلت إن شَــوْبًا من رنين الطُّرْبة يجــرى فى كلمتى «مــعج عوج» وأن النابــغة حَرَص على اللــفت لهذا الرنين فأحــاط الكلمتين بــحرفى عين

واحدة فى كلمة على والثانية فى كلمة معاقم، ولا يجوز أبدا أن نهمل تكرار الحرف فى جملة، أو شطر بيت ولا أشك فى أن الفعل المضارع فى قوله «تخطو» إنما هو لإحضار هذه الصورة وإعدادك أيها القارئ لسماع صوتها، وسماع النابغة وهو يغنيها وكأنه يُعد شعره للغناء، وأكثر شعره غناه المغنون، ولا شك أنك إن كنت ممن يحسنون الغناء ستجد فى نفسك رغبةً فى أن تغنى قوله (يَحْسِبْنَ أن تُرابَ الأرض مُنْتَهَبُ» لأن هذا الشطر فيه من جمال الشعر وجلاله ما لا يخفى وإنما أراد سرعة الخيل، وأنها ترجم الأرض بحوافرها فلم يَقُل «تكاد من وَقْعهن الأرض تَنصَدِعُ» كما قال زهير، وإنما قال فقط «يَحْسِبْن أن تراب الأرض مُنْتهَبُ» وعليك أنت أن تدرك أنهن ينتهبن تراب الأرض، يعنى يثرن غباره ويصيرنه نهبا لحوافرهن وهو لم يقل هذا وإنما قال إن الخيل يحسبن هذا، وتأمل أين يضع الكلام بإزاء المعنى ثم إن هذا متلائم أشد الملاءمة مع صدر البيت الذى فيه «تخطو على معج عوج» كما أن قول زهير «يكاد من وقعهن الأرض تنصدع» متلائم تمام التلاؤم مع قوله فى أول البيت «تَرْدى على مطمئنات مواطئها» وراجع تردى على مطمئنات وضع بإزائه «تخطو على معج عوج» ثم راجع «تكاد من وقعن الأرض تنصدع» وضع بإزائه «يحسبْن أن تراب الأرض مُنْتَهَبُ» لترى فضل كلام النابغة، وترى إصابة من قالوا ما كان يصلح زهير إلا أن يكون راعياً عند النابغة، وإن كان فى العبارة خشونة أكرهها، وقوله:

تَهْوِى هُوِيَّ دَلَاةِ البئر أسْلَمَها بَيْنَ الأكف وبين الجَمَّة الكَرَبُ

ودلاة البئر هو الدلو الصغير والجمة بفتح الجيم مجتمع الماء، والكرب الحبل وراجع صلة البيت بالذى قبله، لأنه لا يخرج عن أن يكون توكيدا لمعنى الذى قبله، وأن هذا والذي قبله وصف لسرعة الفرس، وتناول هذا الوصف من وجوه مختلفة كل وجه يَفْتَرعُ فيه معنى، فهى مارية مثل مَرْى الدلو، وهى تثب، وهى تحسبُ أن تراب الأرض منتهب وهى تَهْوى هُوِيَّ الدلو الصغير أسلمها الحبلُ فصارت بين الأكف وبين الجمّة، وراجع «تهوى هوى» وضَعْه بإزاء «مُعَجٍ عُوجٍ»

وبإزاء مارية مثل مرى الدلو، لتتأكد من أن هذا الشعر كأنه أعِدّ للغناء، وراجع كتاب الأغانى لتتعرف على الأصوات والنقرات التى غُنى عليها شعر النابغة، وبهذا انتهى هذا الفصل ونبدأ الفصل الثانى الذى فيه ذكر القطاة والعُقاب وأوله قوله:

أوْ مَـرَّ كُـدْرِيّة حَـذَّاء هيّـجَـهَـا   بَرْدُ الشَّـرائِع من مَـرَّان أو شَـرَبُ

والكدرية شديدة الغبُرة والحذاء القصير الذنب، وذلك أسرع لطيرانها، والشرائع جمع شريعة وهى موارد الماء، والشـرب بفتح الشين والراء حوض ماء يكون حول الشجرة، وأول ما ألاحظه أن النابغة يُعَدِّد المشبَّهَ به، فهى مرة تَمْرِى مَرْيا مثل مرى الدلو، ومرة تهوى هويا كـهُوِىِّ دَلاةَ البئر، ومرة تمر مرا كـمر الكدرية الحذاء إلى شرائع الماء وهذا يعيد إلينا مثل قوله فى المتجـردة كالشمس يوم طلوعهـا بالأسْعُد أو دُرَّةٌ صدفية، أو دُمْيَة من مرمر، ومثله كثير فى شعره وفى شعره غيره، وقد مَرَّ له نظائر فى شعـر أوس ولا أجد هذا الأسلوب من أساليب البـيان إلا حين يكون الشاعر أوْفر إحـساسًا بالمعنى الذى يحدثنا عنه، فهو يشبـهه بمشبه به، ثم يرى أن هذا المشبـه به لم يستوف ما فى نفـسه فيـأتى بمشبه به آخر، ثم يراه لا يسـتوفى، فيـأتى بثالث، وهكذا، والأمـر الثانى فى الملاحظة وهو أهم أن هذه التـشبيـهات الثلاثة «مرى الدلو» وهُوِىَ دَلاة البئر، والكدرية هيجـها برد الشرائع» كلها قواصد للماء وكـأن القصد إلى السـقيا الذى انتـهت به القصيدة، عـند هذه القطاة الرائعة النبيلة وهى تسقى أفراخها من مجاجتها من أهم مقاصد القصيدة، وكأنها قيلت فى الرحلة السَّرْمَدِية نحـو السقيا، أو نحو بَرْد الشرائع أو نحـو نبع الماء،وهذا افتراض والحقـيقة أن هذا تصوير يخـفى على سره، وخصـوصا أن النابغة شـبه بذلك كله فرسه الـتى صارت هى الأخرى مثل مَـرْى الدلو، أو تَهْوى نحو الجمـة، أو تطير نحو برد الشرائع، وهو فى كل ذلك عليها قـاصد إلى ما قصدت هى إليه لأنه هو الذى وجهها، وهو راكبها وفارسها هوالذى وجهها نحو ما اتجهت إليه، وأقول مرة ثانية لا أعرف الـتفسير الجلى الواضح لـهذا التصوير، وإنما أعرف فـقط أن النابغة لحق بأوْلى الخيل يبحث عن نبع أو يبحث عن جَمَّة أو برد الشرائع، وأنا متأكد أن

النابغة يريد أن ينبهنا إلى رحلته هو، وإلى مقصده هو، وأنه باحث عن سُقْيا، وإلا فقل لى بربك أيهما أدل على سرعة الفرس، أن أقول إنها تمرى مثل مرى الدلو أو تهوى هوى دلاة البئر أو أقول إنها تمر مرّ الريح، أو أقول إنها تعدو نحو غايتها وكأنها تطير إليها كما قال سيدنا وسيد ساداتنا صلوات الله وسلامه عليه «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها»، أقول لو أن المغزى هو السرعة لكان له فى الإبانة عنه وجه آخر، وإنما أجد الماء هنا هو الأظهر وراء كل تشبيه فسرعة الدلو لا تكون إلا حين يرسل فى النبع.

وراجع كلمة «هيَّجَها» لأن لها حَظّاً من الشعر ليس لغيرها فى هذا البيت ثم كلمة (بَرْد) ودلالتها على ما تجده فى جوفها من لَهَب الظمأ، وشدة اللهفة نحو السقيا، وقوله:

أهْوَى لها أمْغَرُ الساقين مُخْتَضعٌ … خرطومه من دماء الطير مُخْتَضَبُ

أمغر الساقين أراد فيهما حمرة كلون المُغرة وهى الطين الأحمر، والمُخْتَضِعُ المادَ عنُقَهُ.

ولاحظ أنه ذكر المَرَّ مرتين فواحدة متضمنة فى قوله «تمرى» والثانية فى قوله «أو مَرَّ كدرية»، وذكر الهوى مرتين واحدة فى قوله «تَهْوى هُوِيَّ دلاة البئر» والثانية فى قوله «أهوى لها» وكل كلمة فى كل موقع يَسْتخرج منها هذا الموقع دلالة خاصة به والدلالة الخاصة هنا هى أن كلمة «أهوى لها أمْغَرُ الساقين» دالة دلالة ظاهرة على أنه سقط عليها من مرقب فى قمة جبل، وهذا المعنى المطوى وراء كلمة أهوى هنا هو ما صرّح به زهير فى قوله (من مرقب فى ذُراً خلقاء راسيةٍ) والخلقاء الصخرة الملساء فى أعلى الجبل حيث يسكن العُقاب وكلمة «أمْغَرُ الساقين» تذكر كثيرًا عند ذكر العقاب وكذلك كلمة مُخْتَضِع أى ماد عنقه، وقوله «خُرطُومه من دماء الطير مُخْتَضَبُ» هى من صميم صنعة النابغة وقد قصر فيه اللفظ جدا وطال المعنى، وقد أراد وصفه بالقوة، والشراسة، وكثرة صرعاه، وكثرة أكله، من لحوم الطير، وغير

ذلك مما هو من هذا البـاب فاختـصر كل ذلك وطواه تحت هـذه الكناية المتسـعة، وكلام النابغة هنا يشـبه قوله «يَحْسِبْنَ أن تراب الأرض مُنْـتَهَبُ» فى طريقة الدلالة غير المبـاشرة، وطريقة الاختـصار، وهذا كلام جيد جـدا وراجع لترى أنه وصف القطاة فى بيت واحد، واختصر وأجاد ثم وصف الصقر فى بيت واحد، واختصر، وأجاد، ثم انتقل إلى وصف الصراع فقال:

حـتـى إذا قَـبَـضَـتْ أظفـارُه زَغَـبًـا   من الذُّنـابى لَهَـا أو كـاد يـقـتـرِبُ

نجت بضـرْب كَـرَجْعِ العَـيْنِ أبْطَؤُهُ   تعلو بـجـؤجـئـهـا طوراً وتـنْقلِبُ

وكلمة حتى التـى فتح بها البيت الذى بدأ يصف الصـراع أومأت إلى أن أحداثا وأحوالا من الصراع بين الصقر، وبين القطاة، طواه الشاعر،وإنما اختار منها ما بَعْدَ حتى، وما بعـد حتى حاسم وفاصل فى هـذا الصراع ويتجسد فـيه الخطر. راجع قوله «إذا قَبَضَتْ أظفارهُ زغبا من الذُّنابى.» تجـد إشارة مفزعة إلى الحالة التى قبيل حال الهلاك، والعبـارة تريك معنى مُتَوتِّرا ما بين الخوف والرجـاء، فكلمة قبضت توحى بأنه تمكن، ثم تأتى كلمة أظفار، ووضعهـا مكان كلمة مخالب، لأن الظفر للإنسان فى مقابل المخلـب للصقر، وجوارح الطير، أقول اختـفاء كلمة المخالب، وظهور كلمـة الأظفار، تميل بالموقف قليـلا نحو الأمل فى النجاة، ثم المفـعول به وهو «زَغَـبًا» ولم يقل ريشا تقوى الميـل إلى النجاة لأن قبض الأظفار على الزغب ليس حاسـما فى الدلالة على سقـوط القطاة وليس كقـبض المخالب على الريش، وبهذا ينفرج المعنى الذى أحكمـته كلمة (قبضت) ثم يزداد الانفـراج بقوله (أو كاد يقتـرب) وهنا تَرَاجع الخوف والإشفـاق على القطاة أكثـر، لأنه تبين أن أظفاره لم تقبض الزغب وإنما كادت تقترب من ذلك، وترى الكلمات كأنها «مُصورِّة» تقترب من الحدث وتَبْتعِدْ وتريك ببطء ما يتم فى الجو بسرعة فى صراع الطير، ثم لابد أن تلاحظ أن النابغـة لما أجاد ووصف القطاة التى هيَّجـها برد الشـرائع وأجاد وصف أمَغَـر الساقين الوالغ فـى دماء الطير، كـأنه قصـد إلى أن يضع أمام أعـيننا هاتين

الصورتين صـورة القطاة وما فيهـا من حب وتطريب، وحنين، وتعلق بالغ بأفـراخ لا زغب لهـا وصـورة هـذا الكاسـر الجـارح الوالغ فى الدمـاء وهمـا فى الجـو يتصارعان، وكـأن النابغة لما تحدث عن فرسه اختـار لها صـراع الطير فى الجو، ولما تحدث عن ناقته اختار لها صراع الوحش فى الأرض، لأن راكب الناقة يستطيع أن يتأمل ماحوله فى البوادى والـقفار، وراكب الفـرس التى تمـر مثل مـرى الدلو أو تَمُر مر كدرية حذاء لا يناسبها إلا صراع يكون فى السماء.

وهذا البيت:

حتـى إذا قَبَضـتْ أظفـارُه زغـبًـا ... من الذُّنـابى لَهَـا أو كـادَ يَـقـتْـربُ

جاء أكثره فى قول زهير:

حـتى إذا قـبـضـت أولى أظافــره ... منهـا وأوشك بمـا لـم تخـْشَـهُ يقَعُ

وإن كان زهير لم يراع الذى راعاه، النابغـة وراجع الكلمات وتبين الفروق، ثم إن النابغة لـمَّـا ذكر قبض الأظفـار على الزغب انتقل إلى فـتح باب النجاة وقال:

نَجَتْ بضَـرْب كَـرَجْـعِ العَـيْنِ أبْطؤهُ ... تَعْلُو بـجـؤجـئـهـا طوراً وتَـنْقَلبُ

وزهير انتقل منه إلى هلاكها فقال بعده:

حثَّ عَلَيِـهْـا بصَكٍّ ليس مُـؤتَلِيًـا ... بل هُو لأمـثـالهـا مـن مـثـله يَدَعُ

وحث عليها بصك أى ضـربها بجناحه وليس مؤتليا أى مقـصِّرًا ومعنى الشطر الثانى أنه يصيـبها بفضل قوته ويُبقى من قوته لأن قوته أكبـر من أن تستهلك فى إصابتـها، وراجع مرة ثانيـة ووازن بين الكلامين لتدرك الفرق بـين الرجلين النابغة وزهير، وقد برع زهير براعة عالية جدا فى قصيدة أخرى وصف فيها لحظة الصراع فى السماء بين العقاب والقطاة وذلك فى قوله:

دون السمـاء وفوقِ الأرض قَـدْرُهما ... عنـد الذُّنابى فـــلا فــوت ولا دَرَكُ

قوله «فلا فـوت ولا دَرَك» من الكلام العالى جدا وهو قـريب من قول النابـغـة «أو كاد يقترب» وكلمة زهير أوقع وأنقع.

وكلمة بضرب فى قوله (نجَتْ بضَرْب) المراد به خفق جناحيها وجملة «كرجع العين أبطؤه» تقدم فـيها الخـبر لأنه هو الأهم والعناية به أظهر، لأن فـيه الدلالة على السرعة، والجملة صفة لضرب، وهذا وصف بالغ بالسرعة لأن أبطأ خفقها كرجع العين فكـيـف بأسرعه، وقـوله «تعلُو بجؤجئـها طورا وتَنْقَلِبُ) الجـؤجؤ معـناه الصدر وهذا وصـــف لهـا بالذكـاء، والدهــاء، والخبـرة، وأنهـا تُضِلُ العُقَـابَ وتُرْبكُه فـلا تتخذ فى طيـرانها وجها واحـدا، وإنما تعلو تارة، وتهبط تارة، وتعتدل مرة، وتنقلب مرة، وكأنها تستعـرض مع سرعتها مهارتها وقدرتها على المراوغة.

وساعـدنى على استـخراج هذا المعنى أن زهيرا لما وصف سـرعتـها أخلى هذه السرعة من مثل ذلك وقال:

مـا الطرف أسْرَع مُنهـا حين يُرْعـبُهـا ... جـــدُّ المُرَجِّى فـــلا يأسٌ ولا طَـمَعُ

ويرعبهـا يعنى يفزعها والمرُجى العقـاب الذى يرجو الظفر بها، وجده اجـتهاده وكأن زهيـر استحسـن مـثـل «فـلا يأس ولا طمـع» الذى قـال نظيره فى الكافـيـة (فلا فوت ولا درك).

وهذا البيت هو آخـر أبيات الفصل الثـانى، وأول أبيات الفصل الثالث الأخـير وبعده قوله:

تدعـو القَطَا لقـصيـر الخَطْمِ ليْس لَهُ ... أمَـــامَ مَـنْخَـــره ريشٌ ولا زَغَـبُ

ولهذا البيت معنى تدل علـيه كلماته، ومعنى يدل عليه موقعـه، أما كلماته فإن الدعاء هنا مـعناه النداء، وقصيـرُ الخَطْم يعنى قصيـر المنقار، وفراخ القطا قصـيرة المناقير، وقوله «ليس له أمـام مَنْخَره ريشٌ ولا زغب» تأكيد لمعنى ضعفـه وحاجته إلى رعـاية أمه ولولا رغـبة النـابغة فى إظهـار هذه الحالـة من الطفولة والضـعف

والحاجة الشديدة إلى الرعاية لاكتفى بقوله قصير الخطم، وإنما أضاف ما أضاف من أجل زيادة التصوير ليطبع فى نفوسنا حالة وأوصاف هذه الأفراخ التى كانت فى مضيعة، والفعل المضارع فى قوله «تدعو» إحضار للصورة حتى تسمع دعاءها، وترى صورتها وصورة. أفراخها قصيرة الخطم ليس أمام منخرها ريش ولا زغب، ثم إن اللام التى فى قوله «لقصير الخطم» وقفت عندها لاستخرج المراد بها لأنه كان يمكنه أن يقول تدعو القطا قصير الخطم، ويكون الكلام بدل بعض من كل وبدا لى أن هذه اللام لا تعنى أن المعنى تدعو القطا قصير الخطم وإنما المعنى أنها تدعو له يعنى تنادى من أجله، وبهذا يظهر لى المعنى الثانى لهذا البيت والمستفاد من موقعه وهو أن نجاة هذه الأم النشطة الذكية الرائعة من هذا العقاب المتغطرس أو هذا الشيطان المغرور الواغل فى دماء من هو أضعف منه، إنما كان لأن أفراخها كانوا يسكنون فى داخلها وكانت نَوْطئها أى حوصلتها مليئة بالماء لهم كما يحدث النابغة وأنهم كانوا وراء سرعتها التى كانت كرجع العين أبطؤها، وأنهم كانوا وراء ذكائها وحسن تصرفها، وهى تعلو بجؤجئها طورا وتنقلب، وأنها نجت لهم ودعت لهم، وقد أحسن النابغة بتحبُّبه إلى تلك القطاة التى صاغها فى شعره فقطع الكلام واستأنف حديثا عنها يعجب بها ويعجِّب فقال:

حذاء مُدبرةً سكَّاءُ مُقْبلةً ... للماء فى النحر منها نَوْطةٌ عَجَبُ

والحذاء قصيرة الذنب وهذا إعادة لقوله «أو مَرّ كدرية حذاء هيّجها» والسكاء التى لا أذنين لها، والنَّوْطَةُ الحوصلة، قال ابن سيده: ولا أرى هذا إلا على التشبيه بنَوْطة البعير وهى سلعة تكون فى نحره والنَّوطة بفتح النون وراجع البيت ولا تنكر أن يكون النابغة قد اعترته نشوة، وهو يحدث عن قطاته هذه البارعة التى نجت من هذا الشيطان المغرور المخُضَّب خرطومه من دماء الطير، فحدَّث عنها حديثا يلحّنه من أراد تلحينه ويغنيه من أراد غناءه، تأمل التوافق النغمى البين بين كلمتى حذاء، وسكاء، والرنين الرائع بين كلمتى مقبلة، ومدبرة، وكيف جمع التناسب التام فى الرنين والطباق التام فى المعنى، ثم عَجَّب وتعجب من أهم ما فى هذه القطاة وهو

الماء الذى عادت به من برد الشرائع الذى هيجها والذى كانت تحمله لأفراخها وهى تجاهد في الإفلات من هذا الوحش المتجبر.

وقد جاء هذا البناء عند زهير ولكنه نقله إلى الفرس وقال:

حـذاءُ مـقـبلةً وركـاءُ مُـدْبِرة قوداءُ فيها إذا استَعْرضْتَها خَضَعُ

يعنى نظرت إلى عرضها وما أكثر التشابه بين شعر النابغة وزهير.

لا أشك فى أن هذه الأبيات الأخيرة وتجويد النابغة لها واهتزاز لغته ورنينها كل ذلك دال عندى على أنها هى بيت هذا القصيد.

وقوله:

تَدْعـوُ القطَا وبـه تُدْعىَ إذا انْتَسَبَتْ ياصـدْقـهـا حين تَلْقاها فَتَنْتَسبُ

هو استمرار لحديث النابغة وإعجابه بهذه القطاة وبندائها من أجل أفراخها فى لحظة نجاتها لهم، والإعجاب هنا ليس بالماء الذى فى نوطتها وإنما الإعجاب بصدق الفطرة التى بُنيت عليها لغتها.

والقطا فى هذا البيت المراد به جنسها وليس المراد به قصير الخطم وقوله «وبه تُدْعَى إذا انْتَسَبَتْ» أى أنها كما تدعو القطا بكلمة قطا يدعوها القطا بكلمة قطا، فإذا تنادى القطا قال قطا، ولفظُ القطا هو صوت القطا اسم صوت دال على معناه بصوته، وليس كلمة لغوية، وضعت لمعنى، وإنما كان الصدق لهذا فالذى ينتسب إلى القطا ليس فى حاجة إلى بُرْهانٍ لأن صوت القطا برهانه، وهذا معنى قوله «ياصدْقَها حين تلقاها فتنتسب»، حرف النداء فيه معناه التعجب، وهى جملة مستأنفة لإفادة هذا المعنى، ولم أعرف معنى للتعجب من صدق دلالة صوت الطير على جنسه إلا أن يكون المراد أن القطا خصوصا إذا صوّت قال قطا بخلاف الغراب مثلا فإنه لا يصوت بكلمة غراب ولا العصافير تصوت بكلمة عصفور، والمهم أن أتَبَيَّن أى شىء أغرى النابغة بذكر النَّسب والصدق فيه، ودلالة الصوت عليه وأن

القطا تَنْتسب إلى مـا لا شك لأحد فيه إلى آخره أى شـىء دعا إلى هذا؟ هل كان إنكار بنى ذبيـان نسب بنى يربوع فـيهم من الذى دعـا النابغة إلى ذكـر نسب هذه القطاة؟ وصدقها فى نسـبها؟ الشيخ الطاهر يقول إن كلمة «تنتـسب» استعارة أطلق على صوتها الانتساب لشبهه فى السمع باسمها، شبهه بدعْوَى أهل القبيلة بعضهم بعضا باسم قبيلتهم عند الفزع (انتـهى كلام الشيخ ملخصا) وهذا أيضا يقترب عن مِحْنَـةِ النابغة التى ابتـلاه بها يزيد بن سنان المرُىّ، لما أنكر نـسبه فى بنـى ذبيان، وطلّق أُخْتَهُ وقـيل ابنته أمـامة، وقال: إنما طـلقـتهـا لأن النابغة ليس منا، وإنما هو من عـذره وكأنه كان لا يعرف ذلك يوم تزوجها؟ لا أجد ما أقوله إلا هذا لأنى لا أجد مـا يدعو إلى العـجب مما تعـجب منه النابغـة فى قوله «يا صـدقـها حين تلقـاها فتنتـسب» إلا أن يكون ذلك وتحيـرنى أيضا كلمـة تلقاها وهل حين يلـقى أحدنا القطاة تنتسب؟ إن معرفة معنى البيت من دلالاته اللـغوية أمر جيد ومن الجيد أيضا أن أعـرف لماذا ذكر هذا المعنى فى هذا الموضـع؟ وكثـير من القطا نجـا من مطاردة العقـاب، وهذه وحدها هى التى انتـسبت بعد نجـاتها، ووقف النابغـة يعجب من صدقها حين تلقاها فتنتسب؟ ثم إن النابغة قبل أن يتعجب من صدقها حين تنتسب تعجَّب أيضـا من الماء فى النحر منها الذي تحـمله لأفراخها، ومـوضع العجب هنا موضع ظاهر وقد صوَّر النابغة سقيَاها لأفراخها فى بيتين كانا نهاية القصيدة هما:

تسـقى أزَيـغبَ ترْويه مُـجاجـتـهـا   وذاك من ظمئـها فـى ظمئـه شُرُبُ

مُنهـرتُ الشِّـدْقِ لم تَنْبُتْ قـوادمُـه   فى حـاجب العين من تسبيـده زبب

ولاحظ البيت الأول، والفعلان الأساسـيان فيه فعلان مضارعـان، وهما تسقيه وترويه والفعل الثانى جملة حالية من الفعل الأول، وهذا معناه أن الشاعر يحرص على أن يحضـر لنا صورة الحدث لأهمـيته، وهو أن هذه التى ظفـرت بالنجاة من ذلك الشيطان الوالغ فى دماء الطير جاءت لتـؤدى أقدس ما يُودِّيه الحىّ، وهو سقيا الجيل القـادم، ورعاية الحياة فـى خطواتها الأولى، وهذا مناقض لما عليه العـقاب

الذى طاردها، وأنه لا يعيش إلا بتدمير غيره، راجع جملة تَسْقى أزيغب والأزيغب تصغير أزغب وهو الذى فيه زغب ولا ريش له، وهذا معنى مكرر لأنه هو «قصير الخطم»، وهو الذى ليس أمام منخره «ريش ولا زغب» وهو الأزيغب ولا يمكن أن يكون المراد بهذا التكرار أداء أصل المعنى، وإنما هو لفت إلى هذه الأفراخ التى لم تستطع أن تدبَّ الخطوات الأولى على درب هذه الحياة الصعبة المليئة بالصراع، وتوحش الأقوياء الذين يعيشون بتحطيم كل من هو أضعف منهم،ثم راجع جملة الحال (ترويه مجاجتها) وكيف انتقلت من الوصف العام للسقيا إلى خصوصية هذه السقيا وأنها رىٌّ لفرخها من مجاجتها، وما وراء ذلك من حب ورحمة، وتمازج، وتداخل بين ريِّها وريِّه، فمجاجتها هى ريُّها، وهى ريّه أيضا، وكأنها حين تنقل مجاجتها إليه وريّها إليه إنما تجعله بَضْعَة منها ثم تأمل كيف نما هذا المعنى واتسع فى قوله «وذاك من ظمئها فى ظمئه شُرُب» واسم الإشارة متبدأ وهو عائد إلى «تسقى أزيغب ترويه مجاجتها» والظمأ وقت شرب الماء بعد انتهاء مدة العطش، والشرب بضمتين أصله الشرب بضم فسكون، وهو الخبر وأصل الجملة وذاك شرب فى ظمئه من ظمئها، والشيخ الطاهر يقول إن من هنا بمعنى لام التعليل كالتى فى قوله تعالى ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] وعليه يكون المعنى وذاك شرب فى أوان شربه لأوان شربها، ولا أفهم من هذا إلا شيئا واحدا وهو أنها حين ترْويه ترْوى هى، وحين تَسقْيه تُسقى هى، وأن الماء الذى فى نوطتها لا يسقيها ولا يذهب ظمأها وأنها تظل ظامئة وإنما يذهب ظمؤها فى الوقت الذى تُذهب هى فيه ظمأ فرخها، ولا تنتفع بماء نوطتها إلا وهى تَنْفَع غيرها بهذا الماء، وهذا من أكرم المعانى التى يدل عليها النابغة، وخلاصته كما أفهم أنك تسقى بضم التاء حين تسقى وتروى حين تروى وتكرم حين تكرم وتُرحم حين تَرْحم، وأن صنائع المعروف التى تصنعها للغير تصنع لك فى الوقت الذى تباشر أنت فيها صناعتها للآخرين، وهذا الجزء الأخير من القصيدة هو موضع إعجابى الشديد مع أننى لا أجد له معنى يمكن أن أقطع بأنه لا يحتمل سواه وقوله:

مُنْهَــرتُ الشِّـدْق لم تَنْبُتْ قــوادمُـه   فى حَـاجِبِ العَيْن من تَسْبيـدِه زبَبُ

ومُنْهرت الشدق يعــنى واسع المنقار، وهكذا يكون الفرخ فى أول عهـده بالحياة لأن أمه تسقيه وتطعمه من هذا الشدق المتسع، وقوله «لم تَنْبُتْ قوادمُه» معناه ظاهر وأصل الكلام فى الشطر الأخير زبب فى حاجب العين من تسـبيده، والزبب كثرة الريش، والتسبيد أول طلوع الريش، وإنما أراد النابغة أن تنظر فى حاجب عين هذا الفرخ لترى كـثرة الريش وكثافـته وهو فى أول نشأته يعنى فى تسبـيده، وقد كنت عَدَّدْتُ تكرار معنى الطفولة المحتاجة إلى رعاية والتى لا تستطيع أن تعيش إلا بأمِّها ابتداء من قصير الخطم إلى أزَيغب إلى مُـنهرت الشدق، إلى الذى فى حاجب عينه كثـافة ريش يطل لأول مرة وأن هذا التكرار فـيه شيء هو حـرص النابغة على أن تكرر النظر فى هذه الأفراخ ولذلك تراه يحدد أمكنة كـأنه يقول انظر فلن تجد أمام منخره ريشا، وانظر إليه وهو أزَيغب، وانظر إليه وهو ترْويــه مُجَاجتها، وانظر إلى شدقة المنهرت، وانظر إلى حاجب عينه لترى ريشه وهو يطل لأول مرة مع إطلالته هو على هذه الحيــاة، عناية شديدة جدا باللحظات الأولــى التى يَرىَ فيها الأحـياءُ الحيــاة وكأنك تجد مــقابلة ظاهرة بين هذه القطاة التى هــذا شغلها، وهذا الأمــغر الساقين الذى خرطومه من دماء الطير مُخْتَضِبُ، وقد ذكرت أن القصيدة من أولها ذكرت الماء مُمَثّـلاً فى قوله مارية مثل مرى الدلو وفى قوله تــهوى هوى دلاة البئر وفى قـوله هيجــها بردُ الشــرائع، ثم انتهت بهــذا الماء وهو يسقى أُزَيغب منــهرت الشدق وأن رحلة النابغة كانت على فـرس ترحل من نبع إلى نبع حتى انتهت عند النبع الأول وهو الطفولة ترعاها قطاة تسقى أزيعب ترويه مجاحتها والله أعلم.

وسأجعل آخر حديثى عن النابغة قراءة سريعة لقصيدته العينية التى مطلعها:

عفـا ذو حَسَىَ من فَـرْتَنَى فالـفَوارِعُ   فــجَنْبَــا أريكٍ فــالتِّــلاعُ الدوافعُ

وقد أغفل الــدارسون مطلعها واقـتطعوا منها وصف لياليــه وذكر الحية، وفـيها إشارات أريد التنبيه إليها.

وسأقسمها إلى أقسام أولها ذكر المطلع وعدد أبياته تسعة أبيات.

والثانى وصف حالته لما أتاه وعيد أبى قابوس، وذكر الحية وهو ستة أبيات.

والثالث تبرئته مما نسب إليه وهو أحد عشر بيتا.

والرابع خاتمة القصيدة وبيان يأسه من اقتناع النعمان ببراءته وهو تسعة أبيات.

وأرجو أن أهتدى إلى طريق يكون أكثر اختصارا وأكثر دلالة على ما أريده.

وهذه هى أبيات القسم الأولى:

عفا ذو حَسًى من فَرْتَنى فالفَوَارعُ ... فجَنْبَا أريك فالتِّلاعُ الدَّوافع

فمجتمعُ الأشْراج غَيَّر رسْمَها ... مصائفُ مَرَّتْ بعدَنا ومَرابعُ

توهَّمْتُ آياتٍ لها فعَرفْتُها ... لستَّة أعْوامٍ وذا العامُ سابعُ

رَمَادٌ كَكُحْلِ العَينْ لأيا أبينُه ... ونؤىٌ كجِذم الحَوضِ أثْلَمُ خاشعُ

كأن مَجَرَّ الرامسات ذيولهَا ... عَلَيْه حَصيرٌ نمَّقَتْهُ الصوانعُ

على ظهر مَبْناة جديد سيورُها ... يطوفُ بها وَسْط اللَّطيمَة بائعُ

فكَفْكَفْتُ منى عبرةً فرددْتُهَا ... على النَّحْر منها مُسْتَهلٌّ ودَامِعُ

على حين عَاتَبت المشيب على الصِّبا ... وقلت ألَمَّا أصحُ والشيبُ وازعُ

وقد حال هَمٌّ دون ذلك داخلٌ ... مكانَ الشِّغافِ تَبْتَغيه الأصَابعُ

هذا كله مطلع انتقل منه النابغة إلى موضوع القصيدة بالبيت الأخير، (وقد حال هم دون ذلك).

وذو حَسًى والفوارع، وجَنْباَ أريكٍ والتلاعُ، ومُجْتمَعُ الأشْراَج كل هذه أسماء مواضع، وكلها مسايل للماء، فذو حسى سهل من الأرض يستنقع فيه الماء، والتلاع الأرض المرتفعة ينصب منها الماء فى الأوْدية، والدوافع هى التى تدفع الماء

والأشراج مسيل الماء فى الحجارة، والفاء الداخلة على هذه الأسماء تدل على أن بعضها موصول ببعض.

وقوله «توَهَّمْتُ آياتٍ لها» إلى آخر البيت معناه ظاهر والنؤى الحفير حول الخيمة يمنع عنها الماء، وجِذْمُ الحَوض أصْلُه، والخاشع المتهدم، والرامسات الرياح.

والمبناة بساط من أدم كانوا يبنون بيوتهم منها، والسيور التى توصل بها أجزاء البيت، واللطيمة قافلة تحمل المتاع والطيب، ولا تكون لطيمة إلا وفيها الطيب ومنها لطيمة كِسْرى التى كان يُرْسِلها إلى بلاد العرب، وكفكفت عطف على عرفتها أى عرفتها فكفكفت، وقوله على النحر ليس متعلقا برددتها، وإنما هو خبر مقدم والأصل مستهل ودامع على النحر، ومعنى تَبْتَغِيه الأصابعُ أى أصابع الطبيب المعالج تندس إليه لتستأصله.

ولن أشرح الأبيات بيتا بيتا لأن هذا يطول وأكتفى بالآتى:

أولا لوحظ أن أسماء الأماكن التى يحدث عنها والتى عفت كلها مسايل ماء كما قلت وهذه إشارة إلى أنه يبكى الخصب والنعمة والثراء وستجد ما يقوى هذا الفهم فى قوله فى آخر القصيدة «وأنت ربيع يَنَعشُ الناس سَيْبُه» فكأنه بهذا البيت يرد عجز القصيدة على صدرها ثم إنه ذكر فرْتنى والمراد بها الصاحبة، وهو لفظ منقول من ولد الضبع، ولاشك أن اختيار الأسماء سواء الأمكنة أو أسماء الصواحب كل ذلك مما له دلالة فى الشعر، وأن الذى يذكر لى فرتنى فى مطلعه يهيئ نَفْسى لسماع «كأنى سَاوَرَتنى ضئيلةٌ من الرُّقْش فى أنيابها السم ناقع» وليس من المناسب أن يذكر لى سعدى، ثم يحدثنى عن الحية، وإن أردت أن تتأكد أن الذى أقوله هو كما أقوله فضع «عفا ذوحسى من فرتنى» بجوار «أهاجك من سعداك رسم المعاهد»، وهذه صاحبة وهذه صاحبة، وهذا طلل وهذا طلل، ولكن البعد بينهما مُتَّسعٌ جدا، فرق بين معاهد سعداه التى هاجته ومعاهد رأى فيها فرتنى من ولد الضبع ونسأل الله السلامة.

ثم إن الآيات التى رآها فيهـا عناصر لا يجوز إغفال دلالتهـا، أولها قوله «رماد ككحْل العين» وكلمة الرماد تومئ إلى أن شيئا ما قد احترق، وهو غير التراب لأن التراب وإن كـان يدل على أصل المعنى الذى أراده فـإنه لا يدل على هذه الخلفـية وهى أن شيئا ما اشتعلت فيه نار، وهذا مناسب جدا لما كان بين النابغة والنعمان ثم اشتعلت فيه الفتنة، ثم إن كلمة كحل العين وتشبيه الرماد بها لا أستطيع أن أخليها من الإشارة إلى أن هذا الموقـف الذى فيه النابغـة فى حاجة شـديدة إلى عين ترى الأشياء على وجـهها، وتميز بين الحق والباطل، والقـول الكاذب والقول الصادق، وهذا المعنى الذى أقول إنه لا ينفـصل عن ذكر العين وكحل العين صـرّح به النابغة فى الدالية وقال للنعمان:

أحكم كَـحُكـم فـتـاة الحىِّ إذ نظرت ... إلى حـمـام شَـراعٍ واردِ الـثَّـمـد
يحُـفُّـه جـانبـا نيقٍ وتَـتْـبَـعـه ... مـثل الزجـاجـة لم تُكْحَل من الرَّمَـد

يعنى هو يرى أن النـعمـان فى حـاجـة إلى عين كـعين هذه المرأة، وتراه فى هذه الأبيات يقول له أنت فى حاجة إلى أن يكون حكمك على هذا الموقف حكما صحيحا كحكم فتاة الحى وهى امرأة من أوساط النـاس، وأنت فى حاجة إلى عين كعينها وإذا كان يقول ذلك فى الداليـة التى هى أخت هذه العينية فإن هذا لا يبـيح لنا أن نتجاهل هذا العنصر المشترك، وأن ما جاء مُصَرّحًا به هناك جاء مُضمَّنًا هنا، وقوله:

كـأنّ مَـجـرَّ الرامسـاتِ ذُيُولَهـا ... عليـه حـصـيـرٌ نَمَّـقَـتـه الصَّنَائعُ

هذا وصف للرياح التـى رَمَست ودَفَـنْت هذه الآثار، وراجع البـيت لأن الذى أجده فيـه ليس معنى يحتمله وإنما هو مـعنى من أصل معناه، وهو أن هذه الرياح غيـر الرياح التى عهدناها فى رمس الآثار، فليـست هوجا وليست مـواراة بالتراب وليست مصاحبة لمطر، ولا رعد، كـرياح النابغة نفسه، وإنما هى مزيَّنه لها أذيال، تجررها على الآثار، فـتدفنها، ثم إن ذكر زينتها المفهـوم من ذكر الذيول الذى هو لاشك يحضر لنا حسناء لعوبًا خادعـة فتح الباب لمعنى أنها أى هذه الرياح صيّرت

الآثار حصيرًا منسوجا نمقته وزينته وحسنته أيادٍ خبيرة بالتنميق والتزيين والتحسين، ولا أستطيع أن أجُرِّد هذه الصورة من الدلالة على ما قام به بنو قريع من إحكام الوقيعة وتنميق الفِرْية حتى اقتنع بها النعمان وأغلق قلبه عليها، ولم يسمع لشىء مما قاله النابغة. يُبرِّئ به ساحته، وأضيفُ أن النابغة أراد أن يكشف شيئًا من هذا المعنى الذى أراده فذكر الذى يطوف وسط اللطيمة، ولا يمكن أبدا أن تخلى الطواف وسط اللطيمة من الهماز المشاء بالنميم، وكأن النابغة أراد أن يصور لنا صورته وهو يطوف فقال يطوف بصيغة المضارع ثم هو يطوف فى البيوت (على ظهر مبناة جديد سيورها» وإنما قال النابغة جديد سيورها وذكر المبناة ليدل على أن هذا الذى تراه يطوف طاف والمبناة جديد سيورُها وذلك قبل أن تجمع الرامسات ذيولها عليها، وقوله «على حين عاتبت المشيب على الصبى»، وإن كان من المعانى العامة، إلا أنه يمكن أن نجد فيه إشارة إلى أنه قُرِف بهذه الشنيعة بعد ماعلَتْ به السن، وذلك لأن النابغة قال الشعر بعدما احتنك كما قالوا، ولما عرف بالشعر اتصل بجد النعمان ثم بأبيه ثم به ثم رمى بهذه الخسيسة، وهذا يعنى أنه رمى بها فى شيبته التى يعاتب فيها المرء نفسه على الصبى، فكيف بالذى اتهم به، ونجد فى كلمة «والشيب وازع» ما يرجح هذا المعنى ثم إن النابغة كان رجل حكمة وأدب، ووقار، ولم يكن له ولع بلهو النساء ولم يكن له ولع بشراب، وديوانه ديوان نظيف وكان سيدا فى قومه مطاعًا يَعْقدُ الأحلاف مع من يراهم أهلا لها وينقضها مع من يراهم ليسوا أهلا لها، وكان يُخَاطبُ نائبا عن بنى ذبيان، كالذى كان بينه وبين زُرْعة العبسى الذى طلب منه أن ينقض حلفهم مع بنى أسد فرفض النابغة ذلك إلى آخر ما يدل عليه شعره. وهذه أبيات القسم الثانى:

وعيدُ أبى قابوسَ فى غير كُنْهه ... أتانِى وَدُونِى راكسٌ فالضواجع
فبِتُّ كأنىِّ سَاورتْنى ضئيلةٌ ... من الرُّقْشِ فى أنْيَابِهَا السُّمُّ ناقعُ
يُسهَّد من لَيْل التَّمام سَليمُها ... لَحلْى النساءِ فى يَدَيْه قَعَاقِعُ

تناذرها الراقــون من سُوء سَمِّـهـا تُـطلِّـقُــــه طَـوْراً وَطَـوْراً تراجعُ

أتـانِـى أبَيْتَ الـلعـنَ أنَّـكَ لُمْتَـنِـى وتِلْكَ التى تسْـتَك منهــا المسـامعُ

مَـقَــالةَ أن قــد قُلْتَ سَــوفَ أنالُه وذلك مـن تلقـــاءِ مِـــثْلِـكَ رائع

البيت الذى قبل قوله «وعيد أبى قابوس» ممسك بهذا القسم والذى قبله أى إمساك لأنه قال «وقد حال هم دون ذلك» بعد ما أفرط فى التشوق والبكاء وكفكف عبرته، ومعنى هذا أن هما شاغلا شغل عن هذا الذى شغل قلبه من الصبوة ثم جاء هذا الهم فى قوله «وعيدُ أبى قابوس».

وقوله «وعيد أبى قابوس فى غير كنهه» فيه رد لهذا الوعيد، وإلغاء له لأنه فى غير حقيقته، وليس له ما يبررُه، والعبارة لا تخلو من تجهيل من توعَّد من غير موجب للوعيد، ولا شك أن هذه مخاشنة من النابغة، وقوله «أتانى ودونى راكس فالضواجع» يعنى أتانى وأنا فى موضع لا ينالنى كما قال الشيخ الطاهر وهذا يذكر بقوله:

وحلَّت بيُـــوتى فى يـفــاعٍ ممنَّعٍ تخـــالُ به رائعِ الحَـمُــولَةِ طَـائرا

تزِلُّ الوعــول العُـصْمُ عن قُـذُفَـاته وتضـحى ذراه بالـسحـاب كـوافـرا

حـــذاراً ألا تُنال مـــقــــادتى ولا نِسْـوتِى حَـتىَّ يـبِـتْنَ حـرائرا

وهذا وصف لعزه، وعز قومه وأن النعمان لا يناله، وأنه إنما كان يتبرأ مما نسب إليه حميّة وأنفة من أن تلحق به خسيسة كهذه، وكان يتصاغر للنعمان وفاء لمودة وليس مخافة منه. وقوله:

فــبتُّ كـأنى سَـاوَرَتْنِى ضَـئِـيلَةٌ من الرُّقـش فى أنيـابهــا السُّمُّ ناقع

بداية تصوير لفزعه الشديد من هذا الوعيد الذى وصفه بأنه فى غير كنهه، وأنه أتاه وهو فى مأمن لا تناله يد النعمان، والفاء التى فى قوله «فبت» عاطفة على قوله «أتانى» وتفيد ترتيب حالة الفزع البالغة هذه على أتانى من غير مهلة، وهذا

تأكيد لمعنى أن وعـيدك يُفْزعنى ولو كان فى غير كنـهه، ولو كنت بحيث لا تنالنى لعزى وعز قومى، وهذا جيد لأنه ليس له معنى إلا الوفاء وحق طول الصُّحْبةِ التى لم تكن بَيْنى وبَيْنَك فقط، وإنما كانت بينى وبين أبيك وجدّك.

وراجع كلمات هذه الأبيات وأبنيتها، قال فبت فذكر الليل بأهواله وهمومه وهو ذات الليل الذى قال فيه:

كلينى لهـم يا أُمَـيْـمـةَ نَـاصِب وليْلٍ أُقَـاسِـيـه بطىءِ الـكواكبِ
تَطَـاوَلَ حــتى قُلْتُ لَـيْس بمُنـقضٍ ولَيْسَ الذى يَرْعى الـنجـوم بـآيب

ووصفه لليل هنا أهْوَل وأنكى وأجْـزع وأفزع لأنه ليس هناك ليل أهول من ليل تساور فيه حـيّة، وتأمل الكلمات بعد ذلك قال «كأنِّى سَـاورَتْنى ضئيلة» ولـم يقل حية ضـئيلة، وإن كان هذا هو المراد، وإنما حذف كلمـة حية واكتفـى بضئيلة لأن المقصود هو ضآلتها أى دقتها، لأنها إذا أسنّت دقَّتْ وكان سَمُّها أفتك، ثم قال من الرُّقْش فخص نوعا من الحـيَّات، وكل هذا يفيد المعنى الذى في قـوله (فى أنيابها السم ناقع) ولكنه لم يكتف بالدلالة المتضمَّنة فصـرّح بها وقدَّم قوله فى أنيابها لأن هذه الأنيـاب هى موضع الأذى ومـوضع المخافـة ثم ذكـر السُّمَّ وأنه ناقع فى هذه الأنيـاب وكل هذا وراءه ما وراءه فى تصـوير فـزعه ثم إنه قـال «كأنى سـاورتنى ضئيلة» ولم يقل كـأن ضئيلة ساورتنى لأنه لو قال ذلك لنقل الحـديث إلى الضئيلة التى ساورته، وأصل الكلام أنه يحدث عن نفســه وأنه سـاورته ضـئيلة ولا تتقدم كلمة على كلمة إلا لمعنى.

وقوله:

يُسـهَّـد مـن ليل التَّـمـام سليـمُـهـا لِحَلْىِ النِّســاء فى يَدَيْـه قـعــاقع

بيان لمن تصيبه الحية وأنه يسهر ليل التَّمام أى الليل الذى يبلغ أقصى الطول لأنه لو نام لسرى السم فيه ولم تسعفه المدوفة التى كانوا يسقونها لمن لدغته حية، وكانوا يضعون حَلْى النساءِ فى يَدَيْه حتى لا ينام.

وقوله:

تناذَرها الراقــون من سُوء سَـمِّـهـا ... تُـطَلِّـقُـــــه طَـوْرًا وَطَـوْرًا تُراجعُ

يريد هى حية متميزة معروفة بسوء سمِّها حتى إن الراقين الذين يرقون مَنْ لدغة الحية يـعرفونها وينذر بعـضهم بعضًا بســوء سمها، وأن لديغـها يتنفس عنه الألم أحيانًا فيكون كأنه طليق هذا الألم، ثم ما يلبث أن يراجعه الألم مرة ثانية.

هذه هى صورة النابغـة لما أتاه وعيـد أبى قابوس، وقـد ذكـر صـورة أخـرى له لما أتاه أيضًا وعيد أبى قابوس وذلك قوله فى البائية:

أتـانـى أبيـت الـلعـن أنـك لُمْـتَـنـى ... وتلـك التى أهْـتَمُّ منـهـــا وأنـصب

فـــبتُّ كـــأنَّ العـــائدات فَـــرشْنَ لى ... هَرَاسًـــا به يُعلَى فِـــراشى ويُقْـشَبُ

والهَراس الشوك، وفـرق كبير بين قوله فبت هـنا وقوله فبت هناك مع أن بناء الكلام واحـد، فرق بين من بات على فـراش الشوك، ومن بات تـساوره حـية، الأول قلق موجوع والثـانى يواجه الهلاك والسيـاق فى القصيدتين مـختلف جداً، والموضوع ليس واحدًا لأنه فى البائية يُبَرِّر صلته بملوك الغساسنة، وكان النعمان قدْ لاَمَهُ فى ذلـك، والنابغة يقـول له كنت امْرأ له جـانب من الأرض فيـه رجال إذا أَتَيْتهُم أحكّمُ فى أموالهم وأقَرّبُ فأثنيت عليهم وأنت وكل الناس إذا أكرمتم كريمًا شكر وأثنى فليس الذى يشكـرك على معـروفك مُذْنِبًـا وشكرى للغســاسنة على معروفهم ليس ذنبًا، وهذا واضح جداً، ومنطقى جداً، والقـصيدة احتجاج عقلى محض وكأن النابغة فيها واحد من علماء علم الكلام يسوق الحُجَّةَ ويُرتِّب القضايا ويستنتج النتائج، ثم يلاحظ أمرًا مهـما وهو وإن جعله كغيره من الناس الذين إذا أكرمـوا كريمًا شكر، ولا يَعـدونه مُذْنِبًا ويـربط بينه وبين الغساسـنة فى ذلك فإن النابغة يلاحظ هذه الحساسية فيـستدرك ويقول له أنا وإن قرنتك بهم فى ذلك فإنى لا أجهل فضلك وتميزك.

فـــإنـك شَـمسٌ والملوكُ كـــواكبٌ ... إذا طَلَعـتْ لم يَبْـدُ منـهن كَـوْكَبُ

وإذا نزع هذا البيت من سياقه سقط منه أكثر ما فيه من معنى.

والأمر هنا مختلف جداً لأن المصيبة هى رَمْيه بالمتجردة التى كانت بلاء عليه وعلى المنخل اليَشكرى الذى كان من ضحاياها، أو من ضحايا الملك اللخمى الذى أساء الظن بالمنخَّل وهو صديق ثم غاب المنخل ولم يعرف أمره وضرب العرب المثل بأوب المنخل وأوب القارظين ونشر كليب بن وائل.

والخلاصة أن العينية التى بات فيها تساوره ضئيلةٌ من الرقش يتبرأ فيها من تهمة تتصل بعرض الملك اللخمى، والبائية التى بات فيها على فراش من الشوك يُبَرِرُ فيها شكره لقوم حكَّموه فى أموالهم وقربوه، وفعلوا معه فعل الملك اللخمى فى قوم اصطنعهم فشكروه، ولذلك أقول إن سياق العينية غير سياق البائية، وقد تكرر ذكر الحيّة فى شعر النابغة وهذه أخوفُ صورها، وأشدها فزعًا وهناك الحية المسالمة الوفية التى وفت بما عاهدت عليه، والتى ذكرها فى قصيدته التى يشكو فيها ما وجده من بنى ذبيان، وهذه الحية التى باتت تساوره فى هذا المثل الذى ذكره يمكن أن تكون فيها إشارة إلى أعدائه عند النعمان الذين أوْقَعوا به هذا البلاء، والأقرب أن تكون إشارة إلى النعمان نفسه، لأنه هو الذى بات يساوره وعيده ولك أن ترى فيها ما ترى.

ثم قال بعد ذكر الحية أو الليلة النابغية:

أتانى أبيت الّلعْنَ أنك لُمتنِى ... وتلك التى تَسْتَكُّ منها المسَامِعُ
مقالة أنْ قدْ قُلْتَ سوف أناله ... وذَلِك من تِلْقاءِ مِثْلِكَ رائعُ

قوله: «أبيت الّلعنَ أنك لُمْتنِى» من الكلام الذى تكرر فى شعر النابغة لأنه تعبير قريب، وسهل عن أصل المعنى، والمهم ما بعده قال هناك «وتلك التى أهتم منها وأنصب» وقال هنا «وتلك التى تَسْتَكُّ منها المسَامِعُ» ومعنى تستك يعنى تُصَمُّ وتُسَدُّ والمسامع جمع ليفيد أن كل المسامع تَسْتَدُّ وتَسْتَكُّ منها، وفرق شاسع بين أهتم

وأنصَبُ، وسَكُّ المسامعْ والفرق راجع إلى أن النابغة يعطى كل مقام حقُّه بدقة فما كان ينبغى أن يقول فى تهمة عرض الملك «أهْتمُّ منها وأنْصَبُ» ولا أن يقول فى غضب اللخمى عليه لأنه شكر المناذرة «تسْتَكُّ منها المسامع» وكيف وقد قال بعد ذلك كفعلك فى قوم. . . وإنما أعطى كل موقف حقه من غير زيادة، وإنما قال وتلك بالتأنيث مع أن المشار إليه هو أنك لمتنى يعنى لومك يعنى كان يقول وذاك الذى اهتم منه وإنما قال وتلك لأنه فسّره بعد ذلك بالمقالة، ومقالة بالرفع بدل من أنَّك لُمتَنِى الذى هو فاعل أتانى، وبهذا ينتهى هذا القسم ويبدأ الثالث بقوله:

لعَمْرى وما عُمرى علىّ بهيّن لَقَدْ نَطَقَتْ بُطْلاً على الأقَارِعُ

أقارعُ عَوْفٍ لا أحاولُ غيرها وجوه قرود تبتغى من تجادع

أتاك امرؤ مُسْتَبْطِنٌ لى بِغْضةً له من عَدُوٍّ مثلُ ذلك شافِعُ

أتاك بقول هَلْهَل النَّسْج كاذبٍ ولَمْ يأتِ بالحق الذى هو ناصِعُ

أتاك بقول لم أكن لأقوله ولو كُبِّلَتْ فى سَاعِدَىَّ الجوامع

حلفتُ فلم أتْرُكْ لنفسك ريبةً وهَلْ يأثَمَنْ ذو إمَّةٍ وهو طائعُ

بمُصْطحِباتٍ من لَصَافٍ وثَبْرةٍ يَزُرْنَ إلالاً سَيْرهن تدافع

سَمَامًا تُبارِى الريحَ خوصًا عيُونها لهن رذايا بالطريق ودائع

عليهن شُعْث عامدون لحجِّهم فَهُنَّ كأطْرافِ الحَنِىِّ خواضعُ

لكلفتنى ذنب امرئ وتركتَهُ كذِى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتعُ

هذا من أجمع ما قاله النابغة فى معناه ولا يَعْدلهُ فى شعره إلا ما قاله فى الدالية «يادار ميّة بالعليا فالسَّنَد» وهى أقرب شعره إلى هذه القصيدة ولا أجد فى الدالية ولا فى هذه بيتًا واحدًا ولا جملة واحدة توصف بأنها اعتذار لأن الذى يعتذر هو الذى أذنَب، ولست أدرى لماذا وصف الناسُ شعر النابغة للنعمان فى المتجردة وعلاقته بالغساسنة بأنه اعتذار، هذه الأبيات وكل ما قاله فى شأن المتجردة إنكار

للتُّهْمَةِ ورَفْضٌ لها وأنها كذب، وأنها بُطْلٌ نطقه الأقارع عليه ولم يكن له من سبيل لبيان بطلان هذه التُّــهْمة إلا من جهتين: الأول عداوة من نطقـوا عليه بها، وأنهـم يَسْتَبْطنون بُغْضَــه وأن مقتضى العدل والعقل والحكمــة ألا تأخذ الرجل بمقالة عدوه فيه، والأمر الثانى هو الحلف بالله الذى ليس وراءه سبحانه للناس مذهب، وهذان الأصلان هما اللذان دار عليهما كلامه فى كل شعره المتصل بهذه المحنة.

قوله:

لعَمْـــرى وما عُـمرى علىّ بهيّن لَقَــدْ نَطَقَتْ بُطْلاً على الأقَــارِعُ

العَمْر بفتح العين والعمر بضَـمها سواء ولكنه لا يأتى فى الحلف إلا بفتح العين وجملة «وما عمرى على بهيِّن» مُعْتَـرضة بين القسم وجوابه، وذلك لتأكيد القسم، والجواب مؤكد باللام، وبقد، وباستعمال المصدر، (بطلا) وأراد باطلا وقوله «أقارع عوف لا أحاول غيرها» تأكيد لاعتقـاده أن هذه التهمة الباطلة لا تأتيه إلا من جهة هــؤلاء، وليس عنـــده احتـمـــال أن تكـون من جهة أخـرى، لأنه يعرف هؤلاء وما يضمرونه له، وكان هذا كافيًا لأن يشك النعمان على الأقل فيما يقولونه عنه، وقوله «وجوه قرود تبـتغى من تجادِعُ» جملة مستـأنفة، لذم هؤلاء، وهذا من أقذع الذم ومعنى «تـبتغى من تجـادع» تطلب من تشاتم وهذه الجـملة تفيـد أمرين الأول سوء أخـلاق أقارع عوف والثانى تـبرئة النابغة من أن يكون أسـاء إليهم وأن تكون عداوتهم له لشىء أساءهم منه، وذلك لأنهم يبحثون عن من يشاتمونه أساء أو لم يسئ وهذا أسوأ الأخلاق، ووراء كل هذا مـخاشنة خفية للنعمان الـذى يقبل كلام قوم هذا شـأنهم، والمطلوب من ملك النـاس أن يكون أحكم، وأنفـذ وإنما يكون هذا العقل وهذا النفاذ لملك أسَّس ملكه بحكمته، وعـقله، وحسن سياسته، أما وارث الملك، فإنه يؤول إليـه ولو كان غبـيًّا أحمق ويكون حاله كـاللَّطْخِ المعظَّم. وهكذا كان النعمان.

وقوله:

أتاك امـرؤ مُـسْتَـبْطِنٌ لى بِغْــضَـةً له مـن عَـــدُوٍّ مـــثْـلُ ذلك شـــافِعُ

إلحاح على بيان أن شهادتهم عليه تُرَدّ عند من عنده حكمه، وراجع كلمة أتاك وكأنه جاء خصوصًا لهذه الوقيعة، وكلمة مُسْتَبْطن ودلالتها على إنَّ بُغْضَهُ للنابغة بغض خفى مُضْمر فى ضمير نفسه، ومدفون فى باطنها، وتنكير كلمة بِغْضه دال على غرابتها وفظاعتها، وأنها مُنْكَرة وأن له نظراء يظاهرونه على استبطان بغضه وأصل العبارة له شافع والشافع أى ثان يكون بعد الوتر، «ومن عدو» بيان ومثل ذلك صفة لعدو.

وقد كرر كلمة أتاك فى ثلاثة أبيات «أتاك امرؤ مُسْتَبْطِنٌ لى بِغْضةً» و«أتاك بقول هَلْهَل النَّسْج» و«أتاك بقول لم أكن لأقوله» وراجع ترتيب هذه المعانى أولاً «أتاك امرؤ مستبطن لى بغضة» وكان هذا كافيًا لرد مقالته، وثانيًا «أتاك بقول هلهل النسج» وكلمة هَلْهَل صفة للنَسج قدمت عليها وبنى الكلام على الإضافة لأن الهَلهَل هو المقْصُود، والهلهل هو الردىء، وأنه اختلقه ونسجه كما يَنْسج النساجُ الجاهلُ الثوب الردىء، وكان الواجب أن يعصمك عقلك من تصديق كلام مختلق اختلاقًا رديئًا، ثم وصفه بأنه كاذب وهلهل النسج هذا يرجع إلى الحصير الذى نمقتْهُ الصنائعُ لأن الحصير يُنْسَجُ كما يُنْسَجُ الثوبُ وكما يُنْسَجُ القولُ، ولا يكدر ذلك أنه هناك منمَّق وهنا هلهل لأن المهم النّسج فى كل، وأيضًا ترجع بنا كلمة أتاك التى تكررت ثلاث مرات إلى كلمة «يطوف بها وسط اللطيمة بائع» والطائف يتكرر مجيئه وذهابُه ثم إن كلمة النسج وإطلاقها على الكلام، وتسمية الكلام نسجًا وتحبيرًا وصَوْغًا وتصويرًا، تراها قديمة فى الشعر، وهو بلا شك أقرب إلى علمائنا البلاغيين من توابيت اليونان، والمهم أن قوله «ولم يأت بالحق الذى هو ناصِعُ» وإن كان تأكيدًا لا شك فيه للشطر الأول، ومقابلة زكيَّة بين الشطرين فإننى لا أستطيع أن أخلى هذه العبارة من الإشارة الغامضة إلى أن الحق الناصع الذى لم يأتك به هو أن التُّهْمة التى ألحقوها بى لاحقة بهم، وسوف ترى هذا المعنى أكثر وضوحًا فى قوله:

لكلفتنى ذنب امرئٍ وتركتَهُ ... كذِى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتعُ

وهذا نص فى الدلالة على أن النابغة يُهَدَّدُ بذنب فعله غيرهُ وهذه مواجهة صريحة للنعمان بخسيسة وقعت فى بيته.

وقوله:

أتاك بقول لم أكن لأقوله ... ولو كُبِّلَتْ فى سَاعِدَىَّ الجوامع

من أكرم أبيات هذه القصيدة وأدلها على كرم أخلاق النابغة وشدة غَفْلَةِ الملك اللخمى، وبيان ذلك أن قوله: «لم أكُنْ لأقوله» فيه معنى أن الشأن فىّ وما عرف من خلقى وما بُنِيتُ عليه من أدب النفس ألاَّ يَصْدُر عنى هذا. يعنى أن هذه الخسائس نفسى لا تقاربها، وليست من طبعها، وليس من شأنها أن تصدر عنها، ومثله، ولله المثل الأعلى قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧] يعنى الشأن فيه أنه لا يكون من أى جهة إلا من جهة الله، لأنه ليس هناك جهة تستطيعه وراجع قوله: «لم أكن لأقوله»، وفرق بين أن تقول لم أفعل هذا الشىء ولم أكن لأفعله، الثانى أقوى فى النفى لأنه نفى الفعل بدليل. هذا الدليل هو أنه ليس فى كينونته أن يفعله فهو بعيد عن خلقه وجبلته، وهذا هو المعنى المعجز فى قوله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ يعنى أنه شىء غير قابل لأن يفترى وأن ماهيته وتكوينه وتركيبه وألفاظه ومعانيه كل ذلك غير قابل لأن يفترى.

وقوله: «**ولو كُبِّلَتْ فى ساعدى الجَوَامع**» تأكيد لنفى أن يكون هذا من شأنه وأنه يُطيقه، وأنه يقبل الحبس والقيد وإكبال الحديد ولا يفعله، لأنه ليس من شأنه أن يفعله، وهذا جيد جداً ومعناه أن الفعل الذى يعاقب فاعله بالقيد والإرهاق لا أفعله ولو عُوقِبْت بسبب عدم فعله بالقيد والإرهاق، وإذا كان السارق تقطع يده فإنى لا أسرق ولو قطعت يدى وإذا كان القاتل يُقْتَل فإنى لا أقْتُل ولو قتلْتُ: ومثل هذه المعانى بخصوصيتها وجلالها لا تنبعث إلا فى نفس زكية ونقيَّة، وأنا أحب النابغة لطهارة نفسه، وسوف نجد مثل هذا فى البيت الذى يليه وهو قوله:

حلفتُ فلم أتْرُكْ لنفسك ريبةً وَهَلْ يأثَمَنْ ذو إمَّةٍ وهو طائعُ

وأرَدْتُ الشطر الأخير وتأمله تجد رجلاً يَنفى الإثم ويُنْكره، ويعجب ممن يقترفه مادام المرءُ طائعًا غير مكره، وأن الحُرّ غير المكره لا يختار إلا فضائل النفس، وقوله: «حَلَفْتُ فلَمْ أتْرك لنفسك ريبة» من كلام النابغة الذى استحسنه النابغة وكرَّرَ مثله كثيرا فى شعره، وأفهم من هذا أنه كان يروِّى ويختار، ويراجع، وأن التروى والاختيار والأناة والمراجعة فى بناء الشعر لم يكن ذلك وصفا لزهير وحده، وإنما كل من أجاد وجوَّد وثَقَّف كلامه وهذَّبه، وحسَّنه، لابد أن يكون قد راجع وروَّى، وأهم ما فى هذا الشطر هو قوله «فلم أترك لنفسك ريبة» ولاحظ هذه اللام البارعة الداخلة على كلمة نَفْسك وأنَّه لم يَقُل فلم أترك فى نفسك ريبة، لأنه يعلم أن أقْسامه لن تنتزع الريبة من نفس النعمان، وإنما يعلم أنِ من شأن هذه الأقسام أنها لا تترك مدخلا تدخل منه الريبة، وتتعلق به النفس فى سوء الظن به، وكأنه قال لم أتْرك لنفسك علَّة تتعللُ بها فى بقاء الريبة، فإن كنت مصراً على الريبة فليس عندى سبيل آخر لنزعها من نفسك، وقد قال فى البائية بعد هذا الشطر «وليس وراء الله للناس مذهب» وهى كلمة جليلة جداً لا يقولها إلا من لله فى صدره جلال فوق كل جلال، وأن الله سبحانه ليس للناس بَعده مذهب، وأنه سبحانه آخر حصن يتحصَّنُ به البرىء، فإذا كان ذلك لا ينفع عندك فلا أملك لك شيئًا، والغريب أن النابغة مع هذا التعظيم لربه كان وثنيّاً وقد جمع بين القسم بالله، وتعظيم الأنصاب فى قوله فى الدالية:

فلاَ لَعَمْرُ الذى مسَّحْتُ كَعْبَتَه وما هُريق على الأنْصَابِ من جَسَدِ

والجسد الدم، وأراد دماء القرابين، والاستفهام فى قوله «وهل يَأثمنْ ذُو إمَّةٍ وهو طائع» المراد به الإنكار، وقد فسر العلماء الإمة بالنعمة أو بالطاعة أو بالاستقامة وفسرها أبو عبيدة بالدِّين وهذا هو الأشبه لذكرها فى مقابلة قوله هناك «وليس وراء الله للمرء مذهب»، وكأنه لما أنكر بأداة الاستفهام أشار إلى معنى جليل وهو أن كل ذى عقل واستقامة ودين يقول من غير تردد لا يأثم ذو الدين وهو طائع.

ثم بين ما أقسم به وقال:

بمُصْطَحِبَات من لصافٍ وثبْرةٍ　　يَزِرْنَ إلالاً سَيرُهُنّ التَّدافُع

سَمَاما تبارى الرِّيحَ خوصًا عيونُها　　لهن رَذَايَا بالطريق ودائعُ

عليهن شُعْث عامدُون لحجِّهم　　فهُنَّ كأطْرَاف الحَنِىِّ خَواضِعُ

لكلفتنى ذَنْبَ امرئٍ وتركْتَهُ　　كذى العُرِّ يكوىَ غَيْرُهُ وهو راتعُ

والمصطحبات إبل الحجيج، ولصاف وثبرة مواضع فى ديار النابغة، وإلالا الجبل الذى نسميه الآن جبل الرحمة، والسمام بفتح السين جمع سمامة وهو طير سريع الطيران، وقد روى بالرفع أى هن سَمام، والكلام على التشبيه وخوص عيونها أى غائرة من الإعياء، والرذايا جمع رَذِيَّة وهى الإبل التى تَضْعُفُ فى الطريق ولا تقوى على السير فتترك، ويؤخذ رَحْلُها والحَنِىُّ جمع حَنِيَّة وهى القَوْس، والخواضع الخاضعون.

والقسم بإبل الحجيج كثير فى الشعر وهو من أقسام الجاهليين وليس المقصود به تعظيم الإبل وإنما المقصود به تعظيم المنسك منسك أبيهم إبراهيم عليه السلام وإنما ذكر المصطحبات لأنهم كانوا يخرجون للحج جماعات وأفواجًا. كما نفعل الآن والشاعر يريد الشىء فينقل الحديث إلى ما هو منه بسبب، ولاشك فى أنه يريد القسم برب البيت كما قال «لعَمْرُ الذى مسّحتُ كعبته» فنقل الحديث إلى إبل الحج كما ينقل الحديث إلى مِنًى أو إلى الذى سُحِقَتَ فيه المقادم والقملُ، ومن أجل هذا التداخل بين الأشياء المتواصلة والمرتبطة يضيف الشاعر إلى الشىء ما ليس من صفته فهذه الإبل تزور إلالا يعنى عرفة، وجبل الرحمة، وهذه الإبل يدفعها شوق شديد فتُسْرِعُ، وتتدافع، وكأنها صارت هى الحاجّة وليس الذين عليها، وكأن الذين عليها اشتاقوا فاشتاقت، وحَنُّو فحنَّت وأسْرَعوا فأسْرَعتْ، وطار بهم الشوق فطارت، وصارت سَماما يبارى الريح وهذا هو جوهر الشعر، ولاحظ خط سير المعنى، وأن المعنى المقصود لم يبدأ بكلمة مُصْطَحِبات لأن الإبل تَصْطَحِبُ فى

المرعى والرحلة، وورود الماء وإنما بدأ المعنى المقصود بقوله «يزرن إلالا» وبدأت بداية الشوق بكلمة «يزرن» وما وراءها من حنين واقتراب، ثم زاد هذا المعنى، ودلَّ عليه بقوله «سيرهن التدافُع» ولا يكون سير المصطحبات تدافعًا إلا فى حال السرعة ثم إن معنى «يزرن إلالا سيرهن التَّدافُع» عاد إلى المصطحبات وكشف عن حنين جامع جمع هذه المصطحبات ثم انتقل المعنى من سيرهن التدافع إلى «سَمَامًا يُبارى الريح» وليس طيرًا فحسب ثم آل الحال إلى قوله (خوص عيونها) يعنى غائرات من الإعياء ثم انتقل الحال إلى رذايا بالطريق ودائع وهذا موطن من مواطن التجويد والمراجعة لا شك فيه، ثم يأتى قوله:

عليهن شُعْث عامدون لحجِّهم فَهُنَّ كأطْرافِ الحَنىِّ خواضعُ

فأوهم هذا أن الصفات السابقة والحنين الذى طار بهن أوصاف للإبل وأنه كان يتكلم عنها بمعزل عن الحجيج الحَقيقيِّين وأن زيارة إلال والحنين إليه التى أفْضَتْ بها إلى أن تكون سَمَاما تبارى الريح خوضا لهن رذايا كل ذلك خاص بالإبل، والأشعث هو الذى يشغله ما هو فيه عن إصلاح حاله، وقوله «عامدون. . فهن كأطراف الحَنىِّ» هذه الفاء رَتَّبَتْ معنى على معنى، وأن قصدهم إلى الحج وحنينَهَم إلى منسك أبيهم وشغلهم بذلك شغلهم ليس فقط عن إصلاح شأنهم كما هو المفهوم من كلمة شُعْث وإنما شَغَلَهُم عن طعامهم وشرابهم، فصاروا ضامرين كأطراف القسى والقوس من أى جهة لَمَسْتها منها حنَّت ورنَّت، وكذلك هم، ولا أظن أن المراد الضمور وحده لأن ذكر القِسِىّ لا يخلو من الدلالة على الحنين، وهكذا أتْقَنَ النابغة الإبانة عن الشوق إلى البيت، ولم يملأ به قلوب العامدين إلى حجهم فحسب، وإنما ملأ به قلوب الإبل التى تحملهم، ثم إن الإبل يُضْرَبُ بها المثلُ فى الحنين، وإنَّها لا تدع الحنين أبدًا، وأنها تَحِنُّ إلى أوطانها، وإلى أهلها، وإلى أُلاَّفها، وأنها تتجاوب على التحنان أى إذا حَنَّتْ واحدة أجابت حنينها أخوات لها وهذا ينفى غرابة أن تتدافع النوق فى سيرها حتى تصير سماما يبارى الريح شوقًا إلى إلاَل والمهم أن بلاغة النابغة فى تصوير الحنين إلى بيت الله جعلتنا

نتمنى أن نحِنَّ حنين هذه النوق وأنه لم يُطِلْ وصف حنين الذين هم عليها وإن كان أصاب الكثير من المعنى بكلمتَىّ «شُعث فهُنَّ كأطراف الحنىّ» ثم إن كلمة كأطراف الحنىّ متعلقة بخواضع الذى هو خبر المبتدأ وأصل الكلام فهن خواضع كأطراف الحنىّ. والمراد الضمور والتقوُّس.

وبعد ذلك يأتى الجواب:

لكلفتْنى ذَنْبَ امرئٍ وتركْتَهُ   كذى العُرِّ يكوىَ غَيْرُهُ وهو راتعُ

وهذا الجواب فيه غضب شديد واتهام صريح، وواضح للنعمان، وأن قضاءه قضاء ظالم، بل هو قضاء موسوم بأبْشع صور الظلم وأبعدها ليس عن العدل والحق وإنما عن العقل أيضًا لأن تكليف غير المذنب بذنب المذنب، وترك المذنب صورة خارجة عن الفهم، وليس عن العدل فحسب، ولم تعرفها البشرية فى أسوأ أيام الجور، ولم يكتف النابغة بهذا اللوم الشديد، وهذا الاتهام الظاهر، وإنما ألحقه فى قضائه بجفُاة الأعْرَاب الذين كانوا يتركون البعير الذى به عرّ وهو الجرب ويكوون بالنار غيره ليبرأ هو، ولم يكن هذا عاماً فى العرب لأن العرب كما وصفهم ربنا قوم يعلمون وإنما كان يكون من جهال الأعراب، وهذا من أقذع الهجاء، ولا يُهْجَى ملك بأشنع منه، وهذا أيضًا ظاهر، وقد راجَعْتُ قسمه بالمُصْطَحِبات اللائى يزرن إلالا سيرهن تدافع إلى آخر ما وصف لأجد المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، ولماذا أقسم فى الدالية «بَعَمرْ الذى مَسَّحْتُ كعبته» ووجدت السياق مختلفًا جداً ولا يجوز أن يُنْقَل قسمه الذى هناك إلى هنا، ولا العكس، وذلك لأن المقسم عليه هنا هو هذه الصورة التى تهدر عمل الإنسان وتُلغيه إلغاءً تاماً وتكلفه ذنب من أذنب، فالذى أحسن لا يجازى بإحسانه والذى أساء لا يعاقب على سوئه وهذا عكس ما عليه الشرائع وعكس ما عليه الدين الذى أومأ إليه فى قوله «وهل يأثمن ذو إمّة، وهو طائع» وإنما ذكر المصطحبات وعليها الشعث العامدون لحجهم كأطراف الحنىّ ليَشير إلى سعى الناس فى تحصيل

الصالحات وأن هذا ما عليه الناس وأن قضاءك يهدم هذا، ويُحْبِط سعى كل ذى سعى لتحصيل الخير، فكأن المقسم به برْهان على فساد المقسم عليه، وتأكيد لمراد النابغة وهذا بخلاف ما فى الدالية لأنه أقسم بالذى مسح كعبته والذى أمَّن الطير أنه بَرِيء مِمَّا قُرِف به، ولو كنت غير برىء إذن فعاقبنى ربى معاقبة تقر بها عيون أعدائى، إذن المقسم به هناك هو الذى يعاقبه على كذبه، وهذا شىء آخر وإليك الأبيات.

فلاَ لَعَمْرُ الذى مسحتُ كَعْبَتَه ... وما هُريق على الأنْصَابِ من جَسَدِ
والمُؤْمنُ العائذات الطيرَ تَمْسَحُها ... ركبان مكَّة بين الغَيْل والسَّند
ما قلت من شىءٍ مما أُتيتَ به ... إذًا فلا رَفَعتْ سَوْطى إلىَّ يَدى
إذًا فعاقبتى ربى مُعَاقبةً ... قَرَّت بها عَيْنُ من يأتيك بالفَنَد

ثم إنه قبل هذا شبهه بسليمان نبىِّ الله الذى قال له ربه قم فى البريَّة فأحْدُدْها عن الفنَد أى الكذب وكأنه يطالبه بأن يضرب على أيدى الكذابين ثم يرشده إلى ما يجب أن يكون عليه الملك من ثواب أهل الخير على ما يفعلون وحثهم بهذا الثواب على المزيد من فعل الصالحات ومزيد توجيههم إلى الرشاد ثم الضرب على أيدى العصاة المارقين.

ولا أرَى فاعلا فى الناس يُشْبهه ... ولا أُحاش من الأقوامِ من أحَدِ
إلا سليمانَ إذ قال الإلهُ له ... قُمْ فى البَريَّة فاحْدُدُها عن الفنَدِ
فمن أطَاعَك فانْفَعَهُ بطاعته ... كما أطاعك وادْلُله على الرَّشدِ
ومن عَصَاك فعاقِبْه معاقبة ... تَنْهى الظلومَ ولاَ تقْعدُ على ضَمَدِ

والضّمد الجرح المشدود بالضماد كجرح المتجردة الذى قعد عليه ولم يعاقب المذنب معاقبة تَنْهى الظلوم، ومن إشارات النابغة العجيبة أن المعاقبة التى تَنْهىَ الظلومَ أومأ إليها فى صورة صراع الثور مع كلاب الصيد فقد تحرَّش الكلب ضُمران بالثور

فشكَّه الثور شَكَّ المُبَيْطر يعنى الذى يعالج الأحقاد وقضى عليه فلما رأى الكلبُ الآخر (واشق) ما آل إليه أمر ضُمْران وكان متحفزا للانقضاض على الثور تراجع وقالت له النفس لا أرى طمعًا، وهذا معناه أن الثور عاقب معاقبة نهت الظلوم.

والمهم أننى أرجح أن تكون الدالية قيلت قبل العينية لأنه فى الدالية كان ينصح وعنده أمل، وفى العينية كان قد فقد الأمل فى أن يُدْرِك النعمان الأحداث على وجهها، فخاطبه هذا الخطاب الخشن وقاله له: «كلَّفْتَنى ذَنْبَ امرئٍ وتركته» وهذا لا يكون ممن له بصيرة، ثم ألحقه بجفاة الأعراب ثم ختم القصيدة بما يدل دلالة قاطعة على أنه قال له كل ما من شأنه أن يَهْدِيَهُ إلى وجه الصواب فى هذا الشأن وأنه ليس عنده شىءٌ يقوله بعد ذلك، وأن النعمان قد أغلق دونه كل باب، نجد هذا فى هذه الأبيات الرائعة:

فإن كنتُ لا ذو الضغن عنِّى مكذَّبٌ ... ولا حلفى على البراءة نافِعُ
ولا أنا مأمونٌ بشىء أقوله ... وأنْتَ بأمر لا مَحالةَ واقِعُ
فإنك كالَّليلْ الذى هو مُدرِكى ... وإن خلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ
خطاطيفُ حجنٌ فى حِبالٍ متينةٍ ... تَمُدُّ بها أيد إليك نوازعُ

واضح أن النابغة فى هذه الأبيات الأربعة يكشف عن حالة من اليأس؛ وحالة من الاستياء، وأنه يُبَيِّنُ أيضًا أنَّه يتعامل مع إنسان من نوع مختلف لا يَنْفَعُ معه الكلام، ولا يقيم وزنًا لما هو معقول، ولا يفتح قلبا ولا عقلا لأدلة الصواب، وبراهين الطريق المستقيم، وأنه ليس عنده شىء إلا القوة، والغَطْرسة والبطش وأن هذه القوة مادامت لا يخلو صاحبها من البصيرة فلابد أن يجعل الحياة ليلاً مُرْعبًا، يتخطف الناس فيه شياطين، بكلاليب من حديد وهذا هو حال الحاكم الجاهل الطاغى فى كل زمان، ومكان، لا يأمن الناسُ فى سلطانه على شىء، وكأن النابغة يحذر من هذا النموذج الجاهل الغبى من الملوك والحكام ويقول لنا إن مدافعتهم مدافعة للظلام وليل الأهوال العامر بشياطينهم التى تتخطف الناس من أمثال

ما نسـميـهم اليوم «زوار الفـجر» هؤلاء هم الكلاليب أو الخطاطيف الحُـجْن التى تَتَخَطَّفُ الناس فى ليل الظلم والجـهل وبَغْى الحاكم الجاهل الغبـى كل ذلك وأكثر منه حين ينقاد الناس للَّطْخِ المعظّم وراجع كلامه جملة جملة «فإن كنتُ لا ذو الضِّغْن عنى مكذَّب» ولاحـظ أول مـا تلاحظ أن الكلام كله بنى علـى أسلوب الخطاب، وكأنه حاضـر معه يحلل له المواقف بعقل، ورويَّة وبروح مشـوقة للحب، ولعمل الصالحات، وعرفانٍ بفضله، ولكن الملك اللخمى خادم كسرى قد أغلق عقله على شىء لا يقبل الحوار فيه وهكذا كل ملك أو رئيس خادم لغـير قومه يقول له النابغة إن ذا الضـغن مكذب عند الناس جمـيعًـا لأن الضغـينـة تدعـوه إلى الاخـتلاق والافتراء وأنت من بين الناس أهْل الضغـينة عندك لا يكذبون، وهذه واحدة تشهد على فـساد العـقل وخراب النفـس من أى أثر لحكمة، وهذا بلاء إذا كـان وصفـا لواحد من عامـة الناس، فكيف إذا كان وصفا لملك يملك القـوة والقدرة ليس على العقوبة فقط وإنما على السحق والسَّـحْل؟ والأمر الثانى أن حلفِى على البراءة ليس عندك بنافع، وهذه مـصيبـة وقد قلت لك إنه ليس وراء الله للمـرء مذهب، وإذا كانت الأولى دالة على فـساد العقل فـهذه دالة على فسـاد الدين، وإذا كان الملك الجاهل لا عقل له ولا دين فقد انتهى كل ضياء فى حياة الناس إلا ضياء يَمْنَحُهُ هو للكذابين والمنافقين، والحـقدة، وبئست حيـاة تقوم على هذا الشأن، والثـالثة أننى أصْبَحْتُ غير مأمـون بشىء أقوله، وأنت تعلم أنى صاحبت أباك وجدّك، ومعنى هذا أنك تعتقد فى فساد رأى أبيك وجدك، وأنهما صاحبا رجلا لا يؤمن فى شىء يقوله، والرابعـة «هى أنك بأمر لا محـالة واقع» يعنى اتخذت قرارًا بعـقوبتى وأن هذا واقع لا محالة ولو كنت مظلومًـا لأن الذى يَعْنيك هو أن توقع بالناس ما تريد أن توقعه بهم، وهذه أنكى من كل ما مضى، لأنها دالة على شهوة غضب ولاحظ أن كل هذه البوائق قد حذره منها فى الدالية لما قال له:

ومن أطَاعَك فـانْفَـعْـهُ بطاعـتـهِ   كـمـا أطاعـك وادْلُلْه على الرَّشَـدِ

ومن عَـصَـاك فـعـاقِبْه مـعـاقـبـة   تَنْهى الظلومَ ولاَ تـقعـد على ضَـمَـدِ

وقوله أيضًا:

احكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت ... إلى حمَام شِراع واردِ الثمد

إلى آخره، وقد ساق له النابغة كل هذه النصائح وهو يقترب منه بمَدائحَ عالية يجعلها تتخلل هذه النصائح من مثل قوله:

الواهب المائة الأبكارَ زيّنها ... سَعْدان توضحَ فى أوْبارها الّلبَدُ

والراكضات ذيولَ الرَّيْط فانكها ... بردُ الهواجر كالغِزْلانِ فى الجَرَدِ

والخيلَ تمرح غَربًا فى أعنتها ... كالطير تَنْجُو من الشُّؤبُوب ذِى البَرَد

وتأمل أناقة الوصف وتحسين الهبات فالإبل أبكار حسنها وحلاّها وزينها مرعى سعدان توضح، وهو موضع مشهور وفى أوبارها اللبد يعنى قطع الشعر المتجمعة والجوارى يركضن ذيول الريط نعَّمَهُنَّ وجملَهُنَّ وبرَّدَهُنَّ برد الهواجر فلسن جوارىَ للخدمة، وقد صرْنَ كالغزلان بالجَرَد أى الأرض التى لا نبات فيها، وهكذا الخيل تمرح أى تُسْرِع فى أعنتها، وكأنَّها جماعات طَيْر تَنْجُو من الشؤبوب ذى البَرَد، لاشك أن الدالية إن لم تكن أعظم شعر النابغة فهى من أعظمه، والمهم أن النابغة فى النهاية وجد أنه يخاطب حجرًا لخميا أصَمَّ فاعتَرَتْهُ حالةٌ من المَلَل واليأس وقال له افعل ما شئت دل على هذا قوله:

فإنّك كالليل هو مُدْرِكى ... وإن خلت أن المنتأى عَنْك واسع

وهذا جواب الشرط وفعل الشرط الذى ترتب هذا الجواب عليه مكون من أربعة جمل وقَطْعُ هذا البيت عن البيتين قبله قطع له عن أهم جزء فى معناه، ونحن نستشهد به فى التشبيه المركب وهو من أسْيَر شواهد البلاغيين ولكنك حين تعود به إلى موقعه تجد له مذاقًا آخر لأنه لا يُشبِّهه بالليل هكذا تشبيهًا مبتدئًا وإنما يقول له إذا كنت لا تكذِّب فىَّ مقالة أعدائى، وإذا كان حَلِفى على البراءة لا ينفع، وإذا كُنْتُ لا أصدق فى شىء أقوله، وإذا كنت مُصراً على أن توقع بى ما توعدتنى به

فليس لى سبيل للهروب من وقيعتك بى لأن لك رجالا فى كل مكان يأتون بى ولأنك تدخل ما دخل عليه الليل، والهارب منك كالهارب من الليل إلى آخره، وهذا هو حاق المعنى وليس التشبيه المبتدئ له بالليل كما يتبادر من سياق البيت فى كتب البلاغة مقطوعًا ليس عن الأبيات السابقة، فقط وإنما مقطوع عن الجملة التى هو منها، لأنه جواب شرط وليس من حقنا أن نسوق جواب الشرط معزولاً عن الشرط.

قلت إن هذه تشبه أن تكون آخر قصيدة قالها النابغة فى هذا الموضوع لأن الرجل يبدو فيها وقد فاض به الكيل، واستاء واستيأس، وفوض أمره إلى الله، وقبل انتقام هذا الجاهل المتجبِّر، وكأن النابغة كان يعيش فى زماننا وهو يصوِّر ليل الحاكم الجاهل على من تسلط عليهم، وهو ليل مُلغَّم بخطاطيف حُجن فى حبال متينة، وأن الرجل إذا أمسى فى داره وسربه لا يدرى أين تُصْبح به هذه الخطاطيف، فى الحبال المتينة، تشد بها أيد إلى هذا الطاغية الجاهل المتجبر، وإذا كان زماننا قد غاير زمانك يا أبا أمامة فإن ليلنا لم يغاير ليلك والملك الغبى الجاهل المتغطرس فى زمانك لم يغاير الملك الجاهل الغبى المتغطرس فى زماننا وأختم الحديث عنك بكلمة الأستاذ محمود شاكر رحمه الله: رداً على من جمعوا بين قولك «فإنك كالليلِ الذى هو مُدْرِكى» وقول امرئ القيس: «فيالَكَ من لَيْلٍ كأن نُجومَه»، قال ابن سلام: خيَّروا بينه وبين قول النابغة:

فـإنّك كـالليـل الذى هو مُـدْرِكى وإن خلـت أن المنتــأى عَنْـك واسع

فزعم بعض الأشياخ أن بيت النابغة أحكمها، انتهى كلام ابن سلام.

وقال الأستاذ محمود: لا أرى وجهًا للتخيير والموازنة ويا بعد ما بين موقع كل منهما من سياقه ومعناه، فامرؤ القيس أراد ما رأيت من بُطء الليل، وثقله عليه، والنابغة أراد شيئًا يخالفه كل المخالفة حين ذكر الليل، ثم بين مراد النابغة بقوله «فإن النابغة يقول للنعمان بن المنذر:

فإن كنتَ لا ذو الضِّغن عنِّى مكذّبٌ ولا حَلِفِى على البـــراءة نافِعُ
ولا أنا مـــأمـــونٌ بشىء أقـــولُه وأنْتَ بـأمـــر لا مَـــحـــالـةَ واقِعُ
فإنك كالَّليلْ . .

يقول فإن كان شأنى أنا -فيمـا رَمَانى به عدوى عندك- أن لا أجد منك إنصافًا ولا حيلةً فلا الواشى المضطغن مكذَّبٌ لما تعـرف من ضغنه، وعداوته، ولا حَلفى لك على براءتى مما قرفنى به يَنْفَعُ ولا حُسْنُ ما أحتالُ به من القول يُجْدِى علىَّ فى ابتغاء مرضاتك، حـتى أنال الأمن من سطوتك، وكان شأنك أنت أنك قد طويت عَزْمَك على الإيقاع بى لا مـحالة، ولا مهرب، لأحد مما تريـد فإنما مثلى فى كل هذا ومثلـك كالسائر نهـارا فى أرض مرهوبة مـخوفـة، لا يَنْجُو أحـد من غوائل ليلها، مهما حَرَص واحتال، وإنه لَيبْصُـر فى نهارها كُلَّ حيلة تنجيه من مخاوفها، وكلما نجا من مخوف أوهمته نجاته أن الليل بعيد وأنه خليق أن يخلص منها قبل أن يدركه. ولكن الليل مدركه لا محالة، بغوائل لا ينجو عليهن ناج أبدًا.

بهذا نعلم أن لا وجه للتخـيير بين البَيْتَيْن إلا أن يراد بالتخـيير الموازنة بين قدرة الشاعرين فى البيان وحده، انتهى كلام الشيخ رحمه الله.

****